سعيد سالم

عاليها واطيها

رواية

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والاسكندرية

الغـــلاف مهـــدى من الفنان
الدكتور مجدى قناوى

عاليها واطيها

رواية

الطبعة الأولى ١٩٨٥
الطبعة الثانية ١٩٩٢

بنى وطنى ..

سيأتى يوم تتصارعون فيه على الطعام ، وقد يفكر بعضكم حينئذ فى أكل البعض الآخر .

لا تأخذوا تحذيرى مأخذ الهزل ، واحذروا ممن يتاجرون بفطرتكم .

رمسيس سالم

- ١ -

تحت رمال خلدها السكون الأبدى ، ترامت صيحات فزع متناثرة أطارت النوم من رفات عيون الزمن . امتزجت أصوات رعمسيس الثانى بأخناتون وأمنمحات وحتشبسوت . تراصت ذرات الرمال المخلدة بقوة سحرية خارقة . تخلقت منها موجة مكهربة بطاقات القرن الحادى والعشرين الشمسية والنووية والبترولية . تجسدت الموجة أمام أشباح خوفو وخفرع ومنقرع ، حين تثاءب أبو الهول متسائلاً عن سر الحركة التى دبت فجأة فى عالم الموت الأبدى . صدر من الموجة صوت عميق زلزل أركان المعابد الشامخة .

- أيها الفراعين ... لقد انقلبت أهراماتكم .

دبت الحياة تحت الارض فزمجرت وأرعدت . كيف يحدث هذا الذى حدث ؟ .. رؤوس الاهرامات فى الارض وقواعدها فى السماء !

- من الذى قلبها ؟

- وأين كان أحفادنا وكيف سمحوا بذلك ؟

- لا مفر من عودتنا الى الحياة لنعيدها سيرتها الأولى .

- فلنعقد اجتماعاً ترابياً عاجلاً نتدبر فيه أمورنا ونتخذ قراراتنا .

- ولنظل فى سباق مع الزمن حتى ننتهى من هذه المهمة المقدسة .

***

من تحت تراكمات الزمن السحيق خرج الفراعنة الى مواقعهم حسب الخطة الموضوعة ، يحمل كل منهم على كاهله أثقال التاريخ وحكمة الحياة وعبر الزمان الغابر . سطعت شمس مصر فى ذلك اليوم كما لم تسطع منذ آلاف السنين ، وسبحت ربات الحب والامل فى مياه النيل صوب القاهرة قلب مصر ... حيث نام التاريخ .

***

حط أخناتون فى صحراء سيناء بمجمع الأديان الثلاثة . تساءل عن الحكمة من تعدد الديانات تحت ظل الإله الأحد . التهمته نفحة روحية فاستحضر أمامه الوعاظ الثلاثة . سألهم برقة الشاعر وثورة الشاب وهدوء الفيلسوف عن سر انقلاب الاهرامات .

أجاب الثلاثة فى صوت واحد متوحد :

- لسنا نعرف .

نظر اليهم أخناتون بعينيه النفاذتين . كيف يملكون أسرار الغيب في جعبتهم المقدسة ولا يعرفون سر الانقلاب ؟ . نظروا اليه . ما هذا المخلوق الذى انبعث كصفارة انذار تثير الرعب فى سكونهم المستميت ؟ . نظروا الى أنفسهم فحارت التساؤلات فى متاهة غارقة فى المجهول . ساد صمت طويل قطعه صوت محرك يدور على مسافة بعيدة .

قال أخناتون مخاطباً أجسادهم الهزيلة :

- ألا تجدون طعاماً تأكلونه ؟

تبادل الوعاظ الثلاثة فيما بينهم نظرات ساذجة ثم أومأوا مؤيدين لقوله . سأل نفسه كيف لم يفكروا في زراعة هذه الأرض منذ آلاف السنين .أجاب الثلاثة - بصوت واحد متوحد - كما لو كانوا قد استمعوا إلى سؤاله:

- هذا ليس من اختصاصنا .

جثم الفتور على حماسه للقائهم . سألهم رغم ثقته بلا جدوى سؤاله :

- ألم تشهدوا تنفيذ العملية الاجرامية بالجيزة ؟

تبادل ثلاثتهم النظرات الساذجة مرة أخرى وان امتزج بها شئ من الخوف ، ثم أجابوا فى صوت واحد متوحد :

- لقد كنا نائمين .

شك أخناتون فى وجودهم على قيد الحياة فسألهم بدهشة :

- هل تنامون معاً فى نفس الزمان والمكان ؟

- لقد قررنا النوم بأية وسيلة ممكنة ، فى أى زمان ومكان .

- ألا تخافون إلهكم ؟

- بل نعيش على خوفه .

- فلماذا لم تخيفوا الناس بقوته وانتقامه حتى لا يرتكبوا أفعالا اجرامية مثلما حدث ؟

- الناس أصبحوا لا يخافون ... لقد صرنا نحن نخاف منهم .

رأى أن يحسم الحديث معهم قبل أن يدهمه اليأس ، فسألهم :

- هل تتعاونون معى على التفكير فى وسيلة لاستعدال الاهرامات ؟

أجابوا بالموت نفسه :

- نتعاون ، ولكنه بعد استئذان أولى الأمر .

تملكته رغبة مخلصة - رغم رقة مشاعره - فى حيازة مدفع رشاش يطلق نيرانه على قلوبهم ، لكنه تخلى عن هذه الرغبة حين أدرك أن هذه القلوب ليست بحاجة الى الموت .

قال بأسى :

- لا وقت لمثل هذه الاجراءات التى قد تطول .فلنسم بأرواحنا ونفعل شيئاً طيباً .

تبادل الوعاظ الثلاثة نظرات قلقة موحية بالفزع .

فجأة أطلقوا سيقانهم للريح واختفى كل منهم داخل موقع عبادته . هبت نسمة هواء رطبة على الموقع الهادئ فنكس أخناتون رأسه . جثا على الأرض موجهاً بصره الى الشمس مردداً عبارته الشهيرة « أيها الإله الأوحد ... إنك تضع كل إنسان في موضعه » .

ثم انسحب الى أغوار الصحراء يجرجر قدميه متخاذلاً ، حتى استحال الى شبح غير مرئى .

- ٢ -

اجتمع الوعاظ الثلاثة لمناقشة الخطر الذى أصبح يهدد مصيرهم بعد انتشار مذهب « الجوهرية » الذى تروج له فيلسوفة فرنسية معاصرة . طالبت الفليسوفة بإلغاء الطقوس الدينية الثلاثة استناداً الى وحدة الجوهر فى جميع الأديان ، وتحاشياً للصرعات المذهبية بين بنى الانسان ، وحرصاً على أن يجمع الحب شمل البشر على كل بقاع الأرض .

قال الوعاظ إن الجسد هو الكيان الخارجى الحامل للروح الانسانية وأن الشكل هو الكيان الخارجى الحامل لمضمون الأشياء ... ولما كان الامر كذلك فإنه لا بد أن تكون الطقوس هى الرمز المعبر والوعاء الحاوى والشكل المشتمل لكافة الأديان المنزلة ، ولتسقط الفيلسوفة الكافرة ، واللعنة على مذهبها الفوضوى العقيم .

أما أخناتون فلم يرد ذكر اسمه على لسان واحد منهم مرة واحدة .

- ٣ -

انتصب رعمسيس الثانى واقفاً فى شموخ على أرض سيناء . اندفعت الرمال فى موجات حركية متعاقبة كالدوامات البحرية . صدرت عن تموجاتها أصوات خاشعة ، ما لبثت أن هدأت واستكانت فى أرض الموت تحت ظل العملاق الفرعونى المبعوث . تذكر موسى وهارون فانتابته رجفة الخوف من المجهول . تصاعدت حدة يقظته حين رأى جندياً أمريكياً من جنود قوات الطوارئ الدولية مارا أمامه ، يحمل على كتفه مدفعاً رشاشاً لم ير مثله من قبل .

- قل لى يا ... لماذا تحمل سلاحاً ؟

- لأحقق السلام بين المصريين والعبرانيين .

ضحك رعمسيس ضحكة راعدة أفزعت الجندى الرقيق ، ثم تساءل ساخراً :

- شئ ظريف حقا .. السلام بالمدفع؟

تفكر الجندى قليلاً ثم قال بلهجة استنكارية واثقة :

- أيها الفرعون العظيم ... انها وسيلة العصر فلا تسخر منها .

- هل استنفدتم بدائل الدين والفكر والفن تماماً ؟

أجاب الأمريكى بحياء وعلى فمه ابتسامة العارف :

- ما دمت تتحدث عن هذه البدائل الانسانية يا سيدى ، أما كان من الأجدر بك أن تنصح نفسك وقومك ، أم أنك تريدنى أن أذكرك بما فعلتموه مع موسى وهارون ؟

صمت رعمسيس فى كبرياء . لم يكن أمامه الا أن يغير مجرى الحديث . سأله بلهجة قاطعة غير مبررة :

- ما رأيك فى انقلاب الاهرامات ؟

- ربما كانت احدى معجزاتكم الخارقة الجديدة .

- بل انها لكارثة تتحدى أصالتنا .

بأدب شديد قال الجندى ، واثقا من كل كلمة تخرج من فمه :

- لقد تحولت أصالتك التى تتحدث عنها الى قطع استاتيكية ميتة من الطوب ، وعصرنا أيها الفرعون عصر الديناميكية والحرية والتغير الدائم الذى لا يتوقف أبداً .

- يبدو أنك سليل قوم شديدى الغرور .

- معذرة يا سيدى الفرعون . أن أحفادك أهانوا زمانهم بالخوض فى حروب بلا هدف ، استنزفت أصالتك ، ولهذا السبب احتجت عليهم أهراماتك .

- أتقصد أنها انقلبت من تلقاء نفسها ؟

- سوف ترى بعينيك وتسمع بأذنيك وتصل الى الحقيقة .

خاطبه رعمسيس بلهجة خشنة آمرة لا تليق بسائل .

- أتقدم لى عوناً من حضارتك لجيشى ؟

تجاهل الجندى عنجهية الفرعون وسأله بهدوء :

- أى عون وأى جيش ؟؟

- سأستحضر جيشى بأكمله كى نستعدل الاهرامات ، وسوف أكون بحاجة الى سلاح حديث كالذى تحمله على كتفك .

- وما الداعى لاستخدام السلاح في مثل هذه العملية السلمية ؟

- لست أبتغى العدوان على أحد ، لكنى أتوقع مقاومة من جهات عديدة لعملية الاستعدال .

- دعنى أفكر فى هذه المسألة وسوف أعود اليك فيما بعد .

أدار الامريكى جهاز ترانزستور صغير فى جيبه وانصرف تصحبه موسيقا صاخبة أثارت تقزز الفرعون المصرى ، أخذ رعمسيس يتأمله فى ذهول وقد بانت على ملامح وجهه المتحيرة علامات الاستغراب لسماع هذه الموسيقا التى لم تألفها أذناه من قبل . أشعل سيجاراً وراح يسترجع الحوار الذى دار بينهما . كان أبرز ما بقى بخياله من لحظات اللقاء ، تلك الحركة المنتظمة بين فكى الامريكى ، إذ كان يمضغ لباناً فى فمه .

فجأة ثارت زوبعة رملية من حوله أسفرت عن وقوف أخناتون أمامه وقد بدا عليه حزن شديد . سأله رعمسيس .

- ماذا فعلت ؟

قال أخناتون بمزيج من السخرية والأسى :

- هرب منى أصحاب المجمع بجبن لا مثيل له .

- كنت واثقا أن هذا سيحدث .

قال أخناتون والحسرة تعتصر فؤاده :

- لم تعد لهم فائدة فى هذا العصر ، فقد استبدل بهم رجال يسعون الى الحكم باسم الدين .

- رحم الله أيام كهاننا العظماء .

- إنى أفكر فى اللجوء الى أهل الفن والفكر .

أما رعمسيس فقال بثقة شديدة :

- وأنا أعتقد أن استدعاء جيشى هو الحل الوحيد .

ثم افترقا على موعد بلقاء جديد .

- ٤ -

ظللت سحابة رائقة أرض سيناء ، وقذف البحر بأمواجه العابثة على الشاطئ الرملى العجوز فى هدوء ينفث سحراً ، وحين توازت الشمس فى حياء وراء البحر سكنت الموجات وعزف الكون أنغام الصفاء الأبدية .

تسللت بين جدران الصمت المسحور جنيات البحر الجميلات .. راقدات على الشاطئ . تنطلق ضحكاتهن فى عذوبة ونقاء شادية معزوفة الكون الحالمة . قالت نخلة عجوز لجنية :

- إنى أرثى لحال الأحفاد

قالت الجنية :

- من ماء النيل ستدركين سر الاسرار .

ثم اصطفت الجنيات يؤدين الصلاة ، حين قالت كبيرتهن :

- لندع الله أن يوفقنا فى خدمة الفراعنة المبعوثين ولنمنحهم كل ما نملك من قوة السحر العظيم وصلابة الوجود الحى المتجدد .

- ٥ -

تنكـر أخناتون فى زى معاصر واتجه الى حارة « بندقة » بالاسكندرية . جلس الى مقهى بالحى الشعبى وطلب كوباً من القهوة . ركز سمعه على الراديو . صوت مغنية تصرخ باكية فى ذلة . أخرج أخناتون قاموساً عصرياً وراح يتابع معانى الكلمات التى يسمعها . تقيأ ما بجوفه وانصرف .

قال له أهل الحارة أنهم فخورون بالمجابهم « سمارة » مطربة العصر . دعوه لحفل زفاف تحييه وأعطوه عنوان المسرح . فى المساء لم يسمح له سائق التاكسى بالركوب إلا بعد مساومة مالية مجحفة . فى التاكسى أدار السـائق شريط « الكاسيت » وأخذ يهتز طرباً لصوب المطرب الشهير . نظر اليه أخناتون بدهشة بالغة . أخرج قاموسه فاكتشف أن اللانة مخالفة . لـم يفهم شيئاً . تعجب لفظاظة مخارج الحروف من حنجرته وفمه . سأل السائق ببراءة :

- أهو مطرب مصرى ؟

- أتسخر منى يا أستاذ ؟ .. ألا تعرف « محمد ملوخية » ؟

- أقسـم أننى لا أعرفـه . انى غريب عن هذه البلاد وعن هذا العصر .

قال السائق ببلادة :

- انه يتقاضى آلاف الجنيهات فى الليلة الواحدة .

التزم اخناتون الصمت حتى وصلت العربة الى المسرح . ساعة كاملة « تسرسع » سمارة بحنجرتها وتهز بطنها بسرعة شديدة . يصرخ المعجبون بوحشية غريبة من شدة الانتشاء . جمعت منهم مئات الجنيهات ألقيت فوق صدرها . خيل الى أخناتون أنه سيموت مرة ثانية لو انتظر حتى نهاية الحفل وهذا ما لا يجوز فى عالم الاموات أو الأحياء ، فالموت لا يأتى أبدا مرتين . أصر بجنون على الحصول على عنوان مطرب « الكاسيت » الشهير ، ونجـح فى مسعاه . سـافر الى القـاهرة وتمكن من تحديد مـوعد لمقابلته .

***

- أريد الاستنارة برأى سيادتكم حول أسباب انقلاب الاهرامات .

تمضى محمد وتثاءب . خطوط الوجه غير فرعونية .

قال بثقة شديدة :

- الحكاية بالصلاة على النبى ، ولا مؤاخذة ، لا تهمنى فى شئ طالما الأشياء « معدن » * والحمد لله .

فقد أخناتون احساسه بموقعه من الزمن . داهمه الاغتراب الشديد بين عصور مضت وعصر كل ما به يثير الذهــول .

- أنا لم أفهم شيئاً !

- وقتى ضيق يا أستاذ .. تشرب « شيشة » ؟ .

إمتزجت عصور ما قبل التاريخ وانسحبت الى الأزمنة الغابرة المجهولة التى سلفتها ، فبرزت مسألة الخلق والوجود ، وراح أخناتون فى شرود عميق ثم سأله بيأس بالغ :

- بأى لغة تغنى يا أستاذ ؟

- اسم الله عليك . أنا أغنى بلغة المعلمين والجدعان « العترة » بالصلاة على النبى .

ها هى مهزلة الأصالة والجذور الحضارية الراسخة والآلاف السبعة تثمر في النهاية عن لا شئ . هز رأسه فى حسرة .

- هل قرأت شيئا عن حضارتك القديمة ؟

---

* مصطلح شعبى دارج للدلالة على يسر الحال .

- أنا ولا مؤاخذة كنت أسكن فى « الحضرة »* . آه . ولكنى لم أتعلم القراءة والكتابة .. ماذا أفعل بهما ورزق ربنا من غير حساب ؟ .. ثم مالنا نحن بالأهرامات سواء انقلبت أو حتى طارت من مكانها ؟ .

تذكر أن اليأس احدى الراحتين فقال متأسياً :

- شكراً .. شكراً أيها الفنان المصرى العظيم .

- مع السلامة بالصلاة على النبى وقلبى معك .

أستعاد أخناتون قول سمارة فى أغنيتها « أول كلامى كلام وكل كلام له أول .. وكل شئ فى الوجود موجود وله أول » ثم نظر الى شفتى « ملوخية » وهما تتحركان بكلماته « ولا مؤاخذة بالصلاة على النبى » ، فقال انه لن يستسلم .

- ٦ -

أيتها الأرض القديسة يا من شهدت أول ابداعات الخلق .. منذ عصر الحجر وقبل مولد أجدادى تدفقت فى شرايينك دماء الفن المقدس . أكاد لا أصدق عينى . ها هو ترابك قد ترطب بسائل أحمر أغلب ظنى أنه دم

* إسم حى شعبى سكندرى

سال بغير حساب . خضرتك المتألقة أراها باهتة تسلب البهجة من روحى . أراهم يمشون على ترابك فى غيبوبة يا حبيبتى . امنحينى دفئك أحيلك جنة نضرة تتغنى بالمجد . يا ابـنة التاريخ أنا ابنك الذى جاء يبعث فيك الحياة ، يكسو العظام لحما . يعيد الأهرامـــات الى وضعها الحقيقى . يبث الروح فى الجسد الخاوى المستكين ويمنحه الحب والقوة فالبكاء لن يجدى أبداً ،

اتجه أخناتون الى الصحيفة اليومية الكبرى لمقابلة الكاتب والمفكر الكبير « حليم حتحوت » . انبهر بعظمة المبنى ونظافته . تنفس بارتياح وقد عاوده الأمل باحتمال العثور على بغيته . استقبله حتحوت بانحناءة كبيرة تنم عن احترام عظيم ، ثم قبل يده بمحبة صادقة وقال له بصوت خفيض كمن يفشى سرا .

– ما الذى جاء بك الى هنا وفى هذا الزمان بالذات ؟

تأمل أخناتون أفاعيل الزمن على وجه حليم حتحوت حيث يقبع وعى مكثف بثنائية الحياة والموت . أجابه قائلا :

– الكارثة !

– تقصد انقلاب الاهرامات ؟

– وهل هناك كارثة أسوأ منها ؟

قال حليم بلهجة تفيض بالاخلاص :

– انى أنصحك بالعودة الى تابوتك ، وبأن تنزل به الى عمق أبعد من عمقه القديم فى باطن الأرض .

- لم هذا التخاذل ؟

- لأنى أحبك ، وأخشى عليك من مغبة الفشل ، فأنا وزملائى - من المفكرين والعلماء - لن نستطيع أن نقدم لك أى عون ، وبصفة خاصة « العون المادى » .

- لماذا ؟

- أنا شخصياً لست أملك ثمن « خلو رجل » شقة خالية تتزوج فيها ابنتى الأولى .

- لكنى لست أطلب عونا ماديا . فقط أسألك العون الفكرى لمعرفة المسببات والنتائج .

- معذرة أيها الفرعون الشاعر ، فلقد أصبح ذهنى مشوشا وأخشى أن أمدك برؤية قاصرة

- لا تبخل علىّ بوجهة نظرك فإنى مشتاق الى معرفتها .

- قد تزعجك كثيرا .

- لا بأس ، قل ما تعتقد فيه

ران بينهما صمت طويل . كانت نظرات أخناتون تستحث حليم حتحوت أن يتكلم . فى النهاية قال حليم كمن يقرر حقيقة راسخة .

- ان الأهرامات لم تنقلب !

انفجر أخناتون ضاحكا . بدت على وجهه علامات الاشفاق على الكاتب الكبير الذى واصل حديثه قائلاً :

- لا تعتقد أننى جننت ، فأنا لم أصل الى هذه الحالة .

- لكنى رأيتها بعينى مقلوبة ، ولا شك انك أيضا رأيتها كذلك .

- هذا صحيح .

- إذن فكيف تقول إنها غير مقلوبة ؟

- لأن وضعها الحالى هو الوضع الطبيعى .

- ماذا تقصد بالوضع الطبيعى ؟

- هو الوضع الذى يرضى سمارة وملوخية ورجال مجمع الأديان الذين هربوا منك .

لم يكن أخناتون يعلم أنه أمام داهية حين سأله بخبث شديد .

- ويرضى من أيضا ؟

فأجابه حليم بخبث أشد :

- لن أدلك حتى تكتشف بنفسك

لم يعدم أخناتون الأمل

- فمن هم غير الراضين ؟

أجاب حليم ببطء شديد .

- كل من يُعملون عقولهم ، وكل من ارتقى وجدانهم .

شعر أخناتون بسعادة مباغتة . لقد اهتدى الى ضالته أخيراً . صاح بحماس :

- أنت المخلوق الوحيد الذى سيقدم لى العون .

- كيف ؟

- تدلنى بربك على أسماء وعناوين هؤلاء القوم .

- أى قوم ؟

- الذين يُعملون عقولهم والذين ارتقى وجدانهم.

انفجر حليم حتحوت ضاحكا بقوة أقرب الى الغضب ، قفز واقفا على مكتبه وصاح بحسرة :

- اننى أبحث عنهم في هذا الوطن منذ سبعين عاما

- ألم تجدهم بين قرائك ؟

أطلق ضحكة ساخرة وتساءل :

- قرائى ؟ .. هه ! .. لقد أخذ السوس ينخر فيهم فتحولوا الى كائنات هلامية ممسوخة ، وقد تشعبت الأسباب وتشابكت حتى استحال فهمها وتحليلها .

- انك تحيرنى بتفسيراتك .

- ألم أحذرك من البداية ؟

صمت أخناتون طويلا . فكر بعمق في كل ما قاله حليم حتحوت . سأله باهتمام .

- أما زلت مصرا على أن الأهرامات المقلوبة غير مقلوبة ؟

تجسدت معالم الدهاء على وجه حليم حتحوت .

- لكى أكون أكثر وضوحاً ، فإنها مقلوبة وغير مقلوبة فى آن واحد .

تملكت الحيرة أخناتون فقال :

- دعنا نحدد الأشياء بمسمياتها الحقيقية

- هذا ما أفعله بحكم خضوعى للمنطق

- لكنى أرى عاليها أسفلها .

- أما أنا فأرى أسفلها عاليها .

قال أخناتون مخفيا نفاد صبره :

- اذن فنحن متفقان على كونها مقلوبة .

قفز حليم من مكتبه بعصبية واضحة . جلس القرفصاء على الارض بعيداً عن المقاعد مشيرا بسبابته الى أخناتون .

- لا تجعلنى أشك في عبقريتك . التزم بنصيحتى وعد الى تابوتك فلا جدوى من هذه المناقشة .

- عيبك الوحيد هو السلبية الشديدة .

- بل عشقى لمعرفة الحقيقة .

ابتسم أخناتون ابتسامة زمنية ذهل حليم لشدة عمقها وصفائها . أحدثت هزة أرضية طفيفة بالمبنى . تساءل بعينه عن الحقية التى يعنيها حليم دون أن يتكلم ، فأجابه حليم بلهجة خطابية ذات رنين عصرى .

- ستبقى الأهرامات على ما صارت اليه لزمن طويل .

- حتى متى ؟

- حتى تتغير أشياء كثيرة .

- وصلنا الى النهاية .. ما هذه الأشياء فى رأيك ؟

قال حليم بوجه منفصم .

- انى أشعر بجوع شديد .

كلما أمعن حليم فى إستخدام دهــائه ، ازداد أخناتون اعجابا بعبقريته .

- أتسمح لى بدعوتك لتناول الغداء معى ؟

- هذا واجب على من جهة ، وشرف عظيم لا أستحقه من جهة أخرى .

- أرجوك .

- كان بودى ، لكن معدتى أصبحت ترفض الطعام بعد أن تلفت أعصابها من دوام التوتر اليومى .

- أتعدنى بلقاء ثان ؟

- هذا شرف عظيم لى يا مولاى .

***

عندما غادر أخناتون مقر الجريدة الكبرى تذكر ما رواه سائق التاكسى عن « ملوخية » حين دعى لاحياء حفل زواج بسويسرة بين قط وقطة سياميين يمتلكهما أحد الأمراء البترولبين العرب حيث نقده أجره بالاسترلينى . حينئذ تأكد أخناتون من أن النتيجة الطبيعية لتعاقب الحضارات الفارسية والفرعونية واليونانية والرومانية والعربية على الارض التى حكمها يــوما هى أن يقول حلـيم حتحــوت ما قـــاله بعد لـقائه بالفنـــان المصرى الشهــير . تبــادرت الى ذهنـــه فكـــرة تقـــول بأن الفـــكر والـــدين والفـــن ،

إذا لم يقودوا أحفاده الى حل لمأساتهم المعاصرة ، فإنه لا أمل فيهم الى يوم يبعثون .

- ٧ -

من رعود رعمسيس وأشعار أخناتون . من صفاء الشمس المشرقة وليل القمر الحزين ونجوم السهر المتلألئة . من صلوات كهنة آمون وآتون . من رهبة الاله الأعظم أوزوريس مدبر الأحياء والأموات . من تحت جناح الزمن الطائر في أفق الكون ... من هذه العصارة القدسية الخالصة يأتي الفن ، ولا يأتي من طريق آخر ، لكن ...

« ما بلاش اللون ده معانا ... راح تتعب قوى ويانا »

هذا ما سمعته أذناك فوق التراب الأحمر . حسن .. من قبل لم تصدق عينيك ، فالآن لا تصدق أذنيك .

***

أجرى رعمسيس الثانى اتصالاته بالعالم السفلى فاصدر أمراً باستدعاء جيشه كاملا الى صحراء سيناء . لا مناص من اللجوء الى القوة وقد ثبت أنها مفتاح سحرى لكل الاسرار عبر كل الأزمنة ، لنصرة الخير أو الشر على السواء . ثم أصدر أمراً آخر بأن يمثل الجيش

أمامه فى صورة غير مرئية لسواه حتى لا يتسبب فى افساد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل . لكن هذا الامر لم يكن ليغير صلابة عقيدته بأن فكرة وجود الكائنات منفصلة تماما عن قدرة العين البشرية على رؤيتها . فهناك كائنات مرئية لكنها غير ذات وجود .

فى لمح البصر اتخذت الجيوش مواقعها وأعطى له « هامان » التمام باكتمال القوات , لكنه عبر عن قلقه الشديد لاستدعاء الجند بلا سلاح . طمأنه رعمسيس على سلامة القرار وطلب منه أن يعدهم نفسيا لتدريب مرهق على الأسلحة الحديثة التى سيتلقاها من الأمريكان .

سأله هامان بدهشة :

- ما معنى الأمريكان ؟

- انهم قوم أغنياء يعيشون على أرض يقال لها « أمريكا » ، كان يعيش عليها الهنود الحمر قبل إبادتهم .

- لكننا لم نسمع عنهم حينما كنا أحياء !

فكم من أقوام وأجناس تعاقبت منذ بدء الخليفة على بقاع هذا الكوكب الغريب ، وحتما ستظل دورة التعاقب أبدية الى حيث لا نهاية للزمن المجهول ... ثم قال :

- علينا أن نقبل الواقع المعاصر قبل أن نتعامل معه .

اقتنع هامان بوجهة نظر رعمسيس ، لكن حيرة جديدة بدأت تنتابه ، فقد كان يعمل وزيراً للحرب عند الفرعون « منفتاح » - ابن رعمسيس - فلماذا استدعاه رعمسيس ولم يستدع معه ولده منفتاح ؟

- لقد مات ولدى كافرا بالله حين انشق البحر بعصا موسى فابتلعه وجنوده .

تردد هامان قليلا قبل أن يقول له بمكر مستتر .

- لقد كنت مثله يا مولاى .

رغم أنه لم يكن يؤمن بالاله الواحد ، لكن فكرة الكفر عنده لم تكن باعثه الأوحد لروح التحدى أو لاتصافه بالكبر والجبروت . لقد تضاءلت المسألة برمتها أمام روعة المجد العسكرى وعنفوان شهوة الانتصار . قال له رعمسيس بجرأة فائقة :

- لكنى أعتقد أننى آمنت بعد ذلك .

ابتلع هامان المقولة - رغم تشككه - حين ظهر الجندى الأمريكى على مقربة منهما . اللبان فى فمه . الرشاش على كتفه . الموسيقا الصاخبة تنبعث من صدره . رحب به رعمسيس وقدم له هامان ثم سأله :

- هل تباحثت مع قومك بشأن الأسلحة الحديثة ؟

- لقد اتفقنا على تأجيل إمدادك بالسلاح لحين أن تجرى محاولة سلمية بجيشك لاستعدال الأهرامات .

تفكر رعمسيس برؤية ثم قال بغضب رسمه بعناية على وجهه :

- إنى أرفض شروطكم . معى المال ومعكم السلاح ، فإما الموافقة وإما الرفض . أما إملاء الشروط فهذا ما أحتج عليه بكل شدة .

علق الأمريكى ببرود

- لا مبرر للإنفعال يا سيدى ، فنحن أدرى بكم منكم .

تعجب رعمسيس من صفاقة ماضغ اللبان فسأله بغضب :

- كيف ؟

- بالسخرة فقط بنى أبناؤكم الأهرام وحفر أحفادكم قناة السويس ، وبها أيضا ينبغى أن تستعدل الأهرامات .

- هذا افتراء . لقد بنوا الأهرام تقديساً للحاكم ومحبة له وعبادة .

- بل بالسخرة ... نفس السخرة التى اتبعتموها مع اليهود فيما بعد

- لا تخرج عن موضوع الحديث من فضلك .

- لقد قلت ما عندى ... لا أسلحة قبل معرفة نتيجة المحاولة السلمية .

بعد انصراف الأمريكى لم يجد رعمسيس بديلا لما عرضه عليه . أضطر - على مضض - أن يبعث بجيشه الى الجيزة بلا تدريب على السلاح المنتظر .

انتقل الى هناك ليرقب محاولة الاستعدال بنفسه . اجتمع المهندسون الفراعنة حول الاهرام ووضعوا تصميمهم الفنى لكيفية استعدالها دون سقوطها . قرروا البدء بالهرم الاكبر . تكاثف الجنود حول الزوايا التى حددت لهم وبدأوا العمل ... وفى ظل مظاهرة كونية صاخبة اجتمع فيها الشمس والقمر والنجوم وبعثت فيها بقية الكواكب الاخرى باشعاعات الحب والتبجيل ، كان التاريخ واقفا .

فوجئ الجميع بظهور خوفو . إتجه بثبات الى رعمسيس . قال له بوجه

متجمد المعالم :

– لماذا لم تستعن بمهندسينا من الاحفاد ؟

– لقد هاجروا الى الدول العربية .

– هل اتصلت بالحكام المعاصرين تستأذنهم فيما تفعل ؟

– ولماذا أستأذنهم وأنا أحاول أن أحقق لشعبهم ما عجزوا هم عن تحقيقه ؟

راح الجنود يرتلون الاهازيج الدينية بايقاع ثابت وهم يحاولون زحزحة الهرم من الارض تمهيدا لقلبه . بذلوا العرق والدم ولم يتزحزح الهرم سنيتمتراً واحدا . إنهال عليهم هامان بسوطه الحديدى الملتهب وهو يصرخ فيهم مهددا بالمزيد من العنف والقسوة .

بانت علامات التفكير المركز على وجه خوفو . خيل اليه أن هناك مقاومة مضادة لتحريك الهرم تأتى من الجهة الاخرى المقابلة للجنود . صرح لرعمسيس بما يدور بخلده . كلف رعمسيس هامان باصطحاب بعض الجنود للالتفاف حول الهرم من تلك الجهة . تهلل وجه خوفو بالفرحة لصدق نبوءته حين عاد الجنود ممسكين بعملاق من أحفادهم طوله طول الهرم . أصدر رعمسيس أمرا بالتوقف عن العمل بعد أن أوشكوا جميعا على الموت .

العملاق الاسير يقاوم الجنود بضراوة . يوقع بهم عن يمينه ويساره بضربات ساحقة من قبضته الفولاذية الضخمة . يصيح بصوت مفزع معترضا على أسره . متحديا رعمسيس :

– أنا قبطان مراد عثمان ... ألا تعرفوننى ؟

قال رعمسيس ساخراً :

- كيف لا أعرفك وقد جابت شهرتك الآفاق مؤخراً ؟!

- وما دمت تعرف هذا فبأى حق تقبض على ؟

- لأسألك لماذا تقاوم استعدال الهرم المقلوب .

- كأنك تسألنى لماذا أقاوم الموت ؟

لم يكن رعمسيس بحاجة الى مهارة ذهنية تدعم ظنه باستحالة استقلالية هذا البنيان البشرى الاسطورى .

سأله بآلية :

- قل لى أولا .. من وراءك ؟

- عشرات من العمالقة وربما مئات ، وكلهم من ذوى الحيثية .

ها هى الحقيقة تعلن عن نفسها ، بينما الأحفاد يتفرجون .

- لماذا قلبتم الاهرامات ؟

- نحن لم نقلبها .

- إذن فقد انقلبت بسببكم .

تساءل العملاق بصوت ينبئ عن الاستهانة الفائقة بالجريمة .

- فما هى مسئوليتنا عن ذلك ؟

- كان من الممكن أن تستغلوا عملقتكم للحيولة دون انقلابها .

- لكننا لم نتعملق إلا بعد أن انقلبت ، ولو أنها اعتدلت لعدنا كما

كنا .

- فماذا كنتم من قبل أيها الانتهازى الخائن ؟

- كنا صراصير !

فليهنأ علماء التطور . ها هى حجة ملموسة يمكنهم أن يتذرعوا بها أمام رجال الدين ..

- وكيف حدث هذا التحول الصارخ ، وبهذه السرعة ؟!

أجاب قبطان بنغمة اختلفت كثيراً عن نغمته الحوارية السابقة .

- لا شئ بعيد عن قدرة الله .

مهما كان الامر فلا بد أن للايمان قداسته .. انى أحتقر هذا الديناصور البشرى الكريه ..

- لا مبرر لان تلعب أمامى دور الولى ، فالشيطان متجسد فى وجهك .

- ومن أنت حتى تصدر على مثل هذه الاحكام ؟

بصوت قوى راعد قال رعمسيس مفجراً سخطه وغضبه :

- أنا الذى قرر اعدامك رميا بالدولارات ..

ثم أصدر أمرا الى العالم السفلى بأن يتحول الجنود الى أجسام مرئية فوقع التحول على الفور . ذعر قبطان من كثرة عددهم . قال له رعمسيس :

- كل هؤلاء سيقذفونك بالدولارات حتى تموت شهوتك للحياة .

أطلق قبطان ضحكة استفزازية واثقة وقال :

– لن تتمكنوا من قتلى فلا قبل لكم بقوة العماليق من خلفى .

فى تلك اللحظة ظهرت حتشبسوت مرتدية ملابس الرجال فوقف خوفو ورعمسيس احتراما لها وتبادلوا التحية . كانت رائعة الجمال تحوطها هيبة قدسية ويشع منها وقار وجلال . قالت لرعمسيس بصوت هامس :

– حضرت لألفت نظر جلالتك إلى أنك خرجت عن بنود الاتفاق التى قررناها فى الاجتماع .

– كيف ؟

– نحن لم نبعث كى نعاقب أحفادنا على أخطائهم وجرائمهم ، وإنما لكى نعيد الاهرامات الى وضعها الطبيعى .

– ولكن ماذا نفعل بمن يقاومنا ؟

– أنسيت القصر الكبير ؟

– معنى هذا أننا لن نقتل هذا الوغد المسمى بقبطان مراد عثمان .

– نعم ، فهذا ليس من حقنا .

التزم خوفو الصمت وإن ظهرت عليه علامات التأييد لقول حتشبسوت . تفكر رعمسيس قليلا ثم قال لها بتأفف :

– معك حق .

ثم أمر باخفاء الجنود مرة ثانية وتسليم قبطان لحتشبسوت ، التى اصطحبته فورا مع نفر من الجند واتجهت به الى شرق الصحراء .

- ١٠ -

في الطريق سألها قبطان عن وجهتها فأخبرته بأسلوب مهذب أنها مطالبة من مجلس الفراعنة باستضافته مع المطربة سمارة والمطرب محمد ملوخية فى قصر كبير بالصحراء لحين أن يستكمل اخناتون ورعمسيس مهمتهما فى استعدال الاهرامات . لم يتمالك قبطان نفسه فعبر عن فرحته بمشاركة سمارة مكان الضيافة ، لكن حتشبسوت حذرته من ارتكاب أى عمل فاضح قد يسبب له شديد الضرر .

في الطريق بذل القبطان ما وسعت حيلته محاولا اغراءها بملايين الدولارات كى تخلى سبيله ، فلم تستجب له . بدأ يجرب معها وسيلة الضعف والمذلة فقال إنه أنفق على الشعب من ماله الكثير وإنه بنى لهم المدارس والمعاهد بملايين الجنيهات . قالت له بغضب مكتوم :

- لكنها أموال الشعب وليست أموالك .

أجابها قبطان ساخرا :

- إننى أفضل بكثير ممن يجمعون الأموال بمثل طريقتى ثم يخفونها في البنوك الاجنبية بأرقام سرية .

أخفت حتشبسوت شعورها نحوه بالاحتقار الشديد وراحت بذاكرتها الى آلاف السنين حيث « أمرنى الاله آمون رع أن أحكم الارض السوداء والحمراء مكافأة لي . ليس لى عدو .. الكل رعاياى .. حدودى الى نهاية السماء .. مدار الشمس لي ، أعطانيه الاله الذي يسكن معه لانه يعلم أننى أهبه له .. أنا ابنته التى تمجده » .

واصل قبطان بلا كلل محاولاته لاقناع حتشبسوت باعفائه من الاستضافة دون جدوى . فى النهاية سئمت منه فتنازلت عن بعض كبريائها الذى سبق أن أملى عليها الصمت طوال حديثه وقالت بترفع :

- يا بني ، لقد حكمت بلادك أكثر من عشرين عاما ، استعنت فيها بأكفأ الخبرات من عظماء الرجال الذين كانوا يطيعوننى ويحترمون ذكائى ، حتى أن عهدى كان بحق عهد رخاء وبناء لم تخض فيه بلادى حربا واحدة .. ثم تأتى أنت أيها الجهول لتحاول الاستخفاف بعقلى ؟ .. إنى أرجوك أن تصمت وكفاك إيذاء لمشاعرى والا اضطررت الى تأديبك فهذا من حقى ومن صميم سلطتى التى فوضنى بها زملائى الفراعنة .

شعرت حتشبسوت بما انطوت عليه نفسه من نوايا عدوانية بعد سماعه لتهديداتها ، فأظهرت من حوله بضع مئات من الجنود ثم أخفتهم فجأة ، مما أثار رعبه واقتلع نواياه من جذورها . حينئذ لم يجد قبطان بداً من الرضوخ فقرر الصمت . تركته حتشبسوت فى أحد أبهاء القصر الكبير وأشارت له الى الغرفة المخصصة لاقامته خلال فترة الاستضافة . غادرت القصر ساعة ثم عادت مصطحبة سمارة وملوخية . وضعت كلا منهما في غرفته وأمرت الخدم أن يعدوا لهم ما يريدون من طعام وشراب ، ثم أغلقت باب القصر وانصرفت .

***

توهجت رمال الصحراء الملتهبة بحرارة الذكريات فجاء الرجال وانحنوا لتحتمس الاول حين قال لهم « هذه هى إبنتى حتشبسوت .. انها خلفى .. وهى التى ستعتلى عرشى الرائع .. ستأمر الناس فى كل مكان بالقصر .. انها هى التى ستقودكم وستستمعون لها وستتحدثون تحت لوائها .. ان من يظهر لها الخنوع سيعيش ، ومن ينطق بالسوء سخرية من جلالتها سوف يموت » .. ثم تحولت حتشبسوت بذكرياتها بعالمها السحيق بذاتها المترفعة الى كيان غير مرئى .

- ١١ -

من ملكية القوة والفن والجمال الى من يهمهم الأمر :

« يا قوم إنى بعثت من موتى وكنت نسيا منسيا وأنا التى لا ينبغى أن تنسى أبداً .. » .

« يا قوم إنى جئت ههنا فى بؤرة الكوكب المفتون حيث أهرامات أجدادى مهددة بالفناء .. »

« جئت أحمى أرضى من العابثين والدجالين وأبث دمائى الفرعونية المقدسة فى شرايين أحفادى التعساء » .

- ١٢ -

قال أخناتون ان ما لا يدرك كله لا يترك كله . قرر الذهاب الى الاسكندرية ليلتقى بحليم حتحوت فى الصيف . توجه الى المنتدى الادبى الذى يجتمع فيه شباب الكتاب بالمفكر الكبير صيف كل عام . أخفى حليم علامات المفاجأة والدهشة على وجهه ، أما الشباب فقد استقبلوه بثبات . قام حليم بتعريفهم به فأحسنوا احترامه وتقديره . كان الحديث دائرا حول ارتفاع نسبة الامية فى مصر الى حوالى ثمانين بالمائة . قال حليم ان هناك عشرة بالمائة فقط من العشرين الباقين يمثلون نسبة المثقفين فى البلاد . قال شاب ان خمسة بالمائة فقط من هؤلاء العشرة قادرون على شراء الكتب والمجلات الثقافية ، وان اثنين بالمائة من هؤلاء الخمسة هم الذين يقرؤون . سأله أخناتون بتواضع شديد :

- وما هو دليلك على صحة النسب المئوية التى تدعيها ؟

تدخل حليم فقال وهو يقهقه ضاحكاً :

- هو أن أقصى توزيع لأى كتاب لى لا يتجاوز أربعة آلاف نسخة .

حضر النادل حاملا المشروبات وراح يوزعها على الحاضرين فتوقف

سير الحديث . انتهز أخناتون الفرصة لاثارة موضوعه الاساسى بغية معرفة آراء الشباب . طرح سؤاله التقليدى فأجابه شاب :

- لن تعتدل الاهرامات الا بالقضاء على مرض الماسوشيزم المتفشى بين الناس .

وقال آخر :

- بل بتحويل نسبة الجهل الى صفر بالمائة .

قال ثالث :

- قد تعتدل لو زرعت نصف صحرائنا بغير السخرة ، أو حتى بالسخرة .

كان حليم يبتسم تعبيراً عن سعادته بآراء تلاميذه ومريديه ، لكنه قال معقبا :

- أحب ما فى الشباب الى قلبى نواياه الحسنة ، لكن الحلول التى استمعت اليها حلول نظرية ، ولقد كنت أود الاستماع الى رأى آخر يقول بأن يتجه الشباب الى الجيزة ليعيدوا الاهرام بعقولهم وسواعدهم الى ما كانت عليه ، فهذا فى رأيى هو الاسلوب العملى الواقعى .

اعترض شاب ذو لحية طويلة على كل ما طرح من أفكار واعتبرها عاجزة عن الفعل ما لم ترتبط بالايمان القوى وممارسة شعائر الدين والامتثال الحرفى الدقيق لأوامر الاله ونواهيه والدفاع عن هذه المبادئ بقوة النار حتى الموت .

بدت علامات الارتياح على وجه حليم حتحوت . الحوار تلقائى

ديمقراطى يتباهى به أمام الفرعون ، أما الفرعون فقد سافر الى غيبوبة ماضيه البعيد حيث أصدر أمرا باغلاق معابد آمون وتحريم عبادته ومحو اسمه من جميع المعابد ... شعوره بالندم عميق على ما فات ، حين انصرف بكامل وعيه ولا وعيه الى العبادة والتأمل ... أهمل شؤون دولته ودب الشك بينه وبين معاونيه الذين رفضوا الاله الجديد آتون . اضطر الى أن يستعين بحاشية من النوبيين والآسيويين والليبيين حماية لنفسه ولعقيدته ، فارتبك الحكم واضطربت الحياة .

تحاور بغضب مع الشاب الملتحى حول علاقة الدين بالسياسة ولم يتوصلا إلى نتيجة . قاطعهما شاب شديد التجهم والعصبية قائلا بحدة :

- مناقشة رجعية .. نحن على مشارف القرن الحادى والعشرين .. العلم سيد المواقف .

التزموا الصمت . توجسوا شرا . تكلم شاب جميل الوجه رقيق الابتسام :

- أيها الأخوة ، ان الحب هو الحل الوحيد لكل مسائل الحياة .

أطلق حليم حتحوت ضحكة المجرب وتساءل :

- إذن فقل لنا كيف نعدل الاهرامات بالحب ؟

أجاب الشاب بثقة العارف :

- هذه المسألة ليست بحاجة الى ترتيبات عقلية لانها مسألة مشاعر وأحاسيس .

أوماً أخناتون برأسه وقد انعكست مشاعر الحب على وجهه ، فتذكر قسمه الدائم فى حياته الاولى حين كان يقول « أقسم بحق سعادتى بالملكة وأطفالها » ... طفرت من عينيه دموع الأسى لفراق زوجته الحبيبة نفرتيتى وتمنى لو بعثت معه تشاركه فى هذه المهمة الدنيوية الشاقة .

أدرك أنه حصل على رصيد معقول من حصيلة فكر الشباب المعاصر بايجابياته وسلبياته ، فاستأذن فى تواضع للانصراف ، لكنه لم يتفق مع حليم حتحوت على لقاء آخــر .

- ١٣ -

من رائد التوحيد فى عالم الانسان الى أحفاده بأرض مصر :

« الحب في زماننا يا أحفادى كان فيضا من نعيم الاله فحسب . الحب فناء وعبادة ... يطاول المجرات ويحتوى الآزال والآبــاد . تذوب به الاجساد في الارواح فيصير الكون الى شفافية تكشف عن أسرار الوجـود ، وتنتقل جنـة الخـلد من زمنـها الغارق فى غموضه الـى زمـن الموجودات ، وتغدو الحياة مترعة بالنعيم ، ثملة بنشوة السعادة

الابدية .

الحب يا أحفادى رقيق رهيف . أخشى أن تطبقوا على أنفاسه بما تفعلونه بأنفسكم . لقد جئت اليكم كى أحرركم من أثقال الكراهية التى تنوء بها قلوبكم ، والتى تحول بينكم وبين استعدال أهراماتكم المعكوسة .

- ١٤ -

الجنود ملقون على الأرض فى حالة اعياء شديد . يلتزم هامان الصمت مجترا آلام هزيمته أمام الاهرامات المقلوبة .

اختفى خوفو . أخرج رعميسس من جيبه ورقة . راح يراجع بنود القرارات التى اتخذها الفراعنة فى اجتماعهم السفلى قبل الخروج ...

« نحن فراعين مصر العظام ، رواد الحضارة فى عالم الانسان ، علمنا أن أهراماتنا قد انقلبت وأصبح عاليها أسفلها . انتظرنا أن يعيدها أحفادنا أبناء القرن العشرين الى وضعها الطبيعى فطال انتظارنا . نحن فراعين مصر العظام ، نقرر الخروج الى الارض لنُسْهِمَ بكل ما نملك من فكر وفن وقوة فى إعادة الاهرامات الى ما كانتَ عليه ... رؤوسها

شامخة فى السماء وقواعدها راسخة على أقدم أرض عرفها التاريخ .

نحن فراعين مصر العظام . اخترنا الفرعون الشاب أخناتون ، الشاعر العبقرى والمهندس العظيم وأول من نادى بتوحيد الاله على هذه الارض . قررنا إيفاده ، للالتقاء بأبرز الرجال والنساء في عالم الفكر والفن وبرجال الاديان الثلاثة ، وكلفناه بتقديم تقرير لنا بعد انتهاء جولته الاولى ، حتى نتدارس معا الأسس النظرية والعملية التى سنتبعها لاستعدال أهراماتنا الخالدة .

نحن فراعين مصــر العظام . قررنا إيفاد الفرعون رعمسيس الثانى لدراسة إمكانية إستخدام القوة فيما لو فشلت سبلنا القائمة على الوسائل السلمية . أما الملكة حتشبسوت فسوف تكون مسئولة عن أمان من يتقرر استضافتهم بالقصر الكبير ممن يتسببون - بالسلب أو بالايجاب - فى تعطيل مسيرتنا نحو هدفنا العظيم . وكلنا مدعوون للاجتماع مرة ثانية تحت الارض بعد اجتياز المرحلة الاولى من المسيرة للتشاور والتدبر واتخاذ القرارات اللازمة » .

شعر رعمسيس بزهو شديد لخطورة دوره القائم علي فكرة القوة ، وقال لنفسه ان أخناتون سوف ينفخ في الهواء حتى يتوقف قلبه عن الدق . ألقى بنظرة غير يائسة على جنوده المنهكين . أصدر أمرا الى هامان باعداد وجبة ساخنة ومضاعفة للجنود ، تحتوى على أشهى المأكولات والمشروبات . مر بنفسه على الجنود ليرفع من معنوياتهم ويعدهم باعادتهم الى الأرض معززين مكرمين لو نجحوا فى تنفيذ مهمتهم المقدسة . اضطر هامان حين رأى ذلك الى أن يحد من كبريائه ويعامل الجند بالحسنى أسوة بالفرعون الكبير .

بعد مضى أسبوع كان الجنود قد استردوا عافيتهم .

شحنهم رعمسيس بالعزم على تكرار المحاولة ، واثقا أن المهمة ستكون أخف وطأة هذه المرة بعد استضافة قبطان وسمارة وملوخية بالقصر الكبير . وحتى يبث فى جنده الشعور بالثقة فإنه أمرهم أن يبدأوا بهرم منقرع أولا ، وذلك لصغر حجمه وضمان سهولة استعداله ، وبينما كان يصدر أوامره بصوت جهورى الى هامان فإن تساؤلا ملحا كان يشغل باله « لماذا لم تحتجز حتشبسوت رجال مجمع الاديان مع قبطان وسمارة وملوخية ؟ » .. لكن التساؤل مات بدقات قلبه المضطربة حين تنبأ بعد وقت قليل من بداية المحاولة بأنها ستنتهى الى الفشل . الجند كثيرون . الهرم صغير . الضيوف بالقصر ... لماذا لا يعتدل الهرم ؟ ....

عاد هامان الى سوطه النارى الملتهب وعاد الجند يصرخون وينزفون ويتساقطون ، بينما الهرم راسخ فى مكانه ، رأسه فى الارض وقاعدته فى الهواء .

ظهر منقرع فجأة . همس لرعمسيس بثقة شديدة أن هناك قوة مضادة لتحريك الهرم تعمل فى الاتجاه الاخر . كان رعمسيس قد احتاط هذه المرة منذ البداية بمحاصرة الاهرام من جميع الاتجاهات ولم يكتشف وجود مقاومة بشرية على الاطلاق . قال منقرع بلهجة يقينية :

- ليس من الضرورى أن تكون المقاومة مرئية .

- فكيف نقضى عليها فى هذه الحالة ؟

- نحن الفراعنة ملوك الارواح ورواد العالم السفلي بتوابيته الخالدة

وأسراره المقدسة و ...... قاطعه رعمسيس بعصبية :

- دعنا نختصر الحديث عن أنفسنا فنحن في نكسة كبرى ... ما العمل الان ؟

- ألا يمكن أن نستحضر كبار الكهان من عصورهم المختلفة ؟

- الى متى سنظل ننقب فى الماضى ؟ ... أما من حل مستقبلي ؟

- يبدو أننا تجمدنا فى مواجهة العجز .

سيطرت الحيرة وعلائم الارتباك على رعمسيس . قال انه يفضل الانتحار على اعلان فشله للفراعنة وهو الذى يمجد القوة كحل أمثل للمشكلة . اعتصرت فؤاده مرارة اليأس وهو يلقى على الجند أمرا بالانسحاب من الجيزة الى سيناء فى صورة غير مرئية ، أما هو فينبغى أن يريح أعصابه من عناء الفكر وآلام الفشل الذريع .

رأى أن يمضى سهرته متنكرا بأحد الملاهى الليلية بشارع الهرم . لم ينس قبل انصرافه أن يوصى هامان بمعاملة الجنود معاملة طيبة حتى يستردوا قواهم مرة ثالثة .

صدحت الموسيقا بإيقاع صاخب وراحت الراقصة تتمايل يمينـــا ويسارا

كاشفة عما خفى من جسدها بين الحين والآخر . صفت الموائد عبر أرجاء الصالة وأركانها وامتلأت بصنوف شتى من أفخر المأكولات والمشروبات . تنبعث بين اللحظة والاخرى أصوات فرقعة انفصال السدادات الفلينية عن زجاجات الشمبانيا وسط قهقهات الجالسين وضحكاتهم المجلجلة . احتلت النساء معظم المقاعد وكن جميلات للغاية . طغت ضحكاتهن المميزة على ضجيج الاصوات فأضفت على الجو سعادة أسطورية منفصلة عن الوعى بالزمان والمكان والاسباب والمسببات .

جلس رعمسيس فى زى عصرى الى احدى الموائد وطلب عشاء من اللحم المشوى وشرابا من عصير البرتقال . سيطر عليه شعور بالخجل من نفسه وأصابته الرؤية بشئ من التقزز أفقده الشهية فأعاد معظم الطعام الى النادل . أخذ يدخن سيجارة من سيجارة وقد بان عليه التوتر والملل . بدأ يفكر في الانصراف لشعوره بالوحدة وإحساسه بالاغتراب عن هذا المجتمع .

لم يكد يتأهب للانصراف حتى تسمر فى مكانه من شدة الدهشة . أخناتون يدخل الملهى بحياء مستتر لم ينجح فى اخفائه بالرغم من شدة حرصه على ذلك . عندما لمح رعمسيس توجه من فوره الى مائدته كما لو كان طوق نجاة ألقى أمامه فجأة . سأله بدهشة :

– ما الذى جاء بك الى هنا ؟

أجاب رعمسيس ببساطة شديدة .

– الذى جاء بك .

– إذن فهو الأسى على ما صار إليه أحفادنا من عجز وانحلال .

- وماذا تنوى أن تفعل هنا ؟

- سوف أطرح سؤالى عن سر انقلاب الاهرام حتى أستكمل تقريرى .

- لن تجنى منهم سوى الضحك والهراء فكلهم سكارى .

بعد برهة قصيرة من التأمل قال أخناتون :

- لم لا نشاركهم اللهو والشراب حتى نستطيع الاندماج معهم ؟

- لقد راودتنى نفس الفكرة لكنى خجلت من التصريح بها لجلالتك .

- لا حياء بيننا ، فنحن أصحاب رسالة واحدة .

***

بعد زمن قليل سرت النشوة فى أوصالهما فراحا يصفقان ويرقصان . ذهب أخناتون الى مدى أبعد من رعمسيس حين قفز الى المسرح وأخذ يصفق للراقصة ويهتز معها ، ثم يضع أوراقا مالية معاصرة فى صدرها . تعالت ضحكات رعمسيس بالرغم من مراعاته التحفظ فى سلوكه كرجل حرب يتسم بالشدة والوقار وجفاف الطبع .

همس أخناتون بكلمات فى أذن الراقصة فانقلبت من فورها ترقص على يديها بدلا من قدميها وسط تهليل الجماهير وهتافات استحسانهم لما يرونه من محظور . أخذوا يقذفون أخناتون والراقصة بالورود تعبيراً عن سعادتهم بهذا الانقلاب الجديد فى أسلوب الرقص الذي أتاحته لهم كلمات أخناتون الغامضة . كان رعمسيس مدركا لمضمون تلك الكلمات

التى همس بها أخناتون فى أذن الراقصة والتى أدت بها الى أن ترقص بالمقلوب . تحرك من مقعده فى ثبات واتجه الى رجل سميك يحشو فمه بالطعام همس له بنفس الكلمات منتظرا الاجابة انفلتت من الرجل ضحكة عفوية صدرت من أعماقه فأطارت الطعام من فمه وتناثر على وجوه الجالسين راحوا يضحكون بهستيرية ويمسحون آثار الطعام المتناثر على وجوههم ترك الرجل السميك مقعده وأخذ يجرى بين الموائد المتراصة وهو يقول لهم

- هل سمعتم ؟ لقد انقلب الاهرامات ها ها هع

انتشرت موجات الضحك كالعدوى الوبائيه بين الموائد . بينما تمادى أخناتون فى رقصه ونهريجه مع الراقصة حين عاد رعمسيس الى مقعده متخاذلا

فجأة توقف أخناتون عن الرقص ونزل من خشبة المسرح عائدا الى مائدته مصابا بحـزن عميق ، استقبله الجمهور بتصفيق شديد حتى جلس على مقعده أمام رعمسيس قال بأسى شديد

- لا فائدة ... لا فائدة . لا فائدة

آلاف الجنيهات تلقى بلا حساب بعض لابسى العقالات الحريرية يقدمون الهدايا الذهبية الثمينة الى الراقصة يتسابقون الى ذلك بلهفة واندفاع سأله رعمسيس

- ألا تلاحظ وجه الشبه بين معظم الحاضرين وبين قبطان مراد عثمان ؟

- لكنى ألمح بينهم رجالا مهمين من ذوى المناصب العليـا

هز أخناتون رأسه مؤيدا رعمسيس . صمت قليلا وبدت على وجهه امارات التفكير الجدى . قال رعمسيس :

- لقد قررت العودة الى ماضغ اللبان لأعلنه بفشلى وأسأله المعونة من جديد .

قال أخناتون وهو شارد :

- أما أنا فقد اتخذت قرارا آخر ، يتعلق بحليم حتحوت .

- ١٦ -

أطلق أبو الهول زعقة صارخة تردد صداها فى الآفاق بعد انسحاب جيش رعمسيس . لم يتبين الفراعنة كما لم يتبين أحفادهم المعاصرون مغزى هذه الصرخة حتى الآن .

قال الامريكى لرعمسيس ان أباه ثرى جدا يمتلك العديد من المصانع التى تخدم أغراض السلم والحرب . دبر لقاء بينهما فى نيويورك . سجل رعمسيس بأمانة نفقات سفره وانتقالاته . احتفظ بكافة الفواتير والمستندات فى حافظته لتقديمها للمجلس الفرعونى بعد العودة .

ما أن وصل رعمسيس الى أرض المطار الكبير حتى فوجئ بمظاهرة عدائية من اليهود الأمريكيين فى انتظاره . كانوا يرفعون لافتات تنادى بعودته الى « أرض السخرة » ، وتذكره باستعبادهم فى عهده وفى عهد ابنه منفتاح . واجه رعمسيس الوجوه الصارخة بابتسامة غامضة ملهمة تشابهت كثيرا مع ابتسامة أبى الهول . استقبله الأمريكى الأب بحرارة بالغة ، واصطحبه فى عربة فاخرة الى فندق شهير .

خلف الزجاج المضبب ماجت حياة تفوق في غرابتها أقصى شطحات خياله . زاغت عيناه لعجزهما عن ملاحقة سيل العربات والأضواء والدراجات البخارية واللافتات الملونة وإبتسامة الامريكى المشفقة . أمام آلة صماء توقفت العربة وأشار الأمريكى له بالنزول . دعاه لتناول مشروب ساخن سريع . لم يفهم رعمسيس مقصده الا حين ضغط باصبعه

على زر فنزل الكوب فارغا ثم ضغط زرا ثانيا فنزل المشروب . شرب رعمسيس نظرة الأمريكى المشفقة مع القهوة الساخنة وانتظر حتى ألقى الأول بكوبه الفارغ في الصندوق المجاور للآلة ثم فعل مثله وهو يغالب افتضاح توتره الداخلى الشديد . توقفت العربة أمام الفندق . تعثر رعمسيس أثناء نزوله . تناول الخدم الحقائب . كانت ركبتاه ترتعشان داخل المصعد المكيف حين ضغط الامريكى على زر قطار المصعد الى أعلى بسرعة فائقة . سقط قلبه بين ضلوعه لحظة توقف المصعد . برزت عيناه حين فتح الباب من تلقاء نفسه . حاول إعادتهما الى طبيعتهما تحاشيا للنظرة المشفقة دون جدوى .

أمام مائد العشاء وبعد تناول المشهيات الكحولية بدأ يسترد ثباته . لاحظ أن الأمريكى لم يعتذر له عن المظاهرة العدائية ولو من باب المجاملة الزائفة .

تم الاتفاق بينهما على جميع النقاط منذ الاجتماع الاول ... رعمسيس يدفع والأمريكى يمول منطقة الأهرام بمعدات الازاحة والرفع الحديثة التى تعمل الكترونيا . تحدد موعد التنفيذ في الاجتماع الثانى الذي عقد تحت تمثال الحرية . لم يتمالك رعمسيس نفسه فى التعبير عن انبهاره الشديد بهذه الحضارة الحديثة التى كادت تخلب عقله . لكنه عاد يقول بنبرة اعتزاز واثقة يشوبها الاحساس بالغيرة والقلق :

- حضارة تفتقر الى الروح ... حضارة لن تعرف الخلود .

قال الامريكى بلا انفعال :

- وفى الوقت نفسه فإنها الحضارة الوحيدة التى ستمكنك من استعدال أهراماتك المقلوبة .

تجنب رعمسيس الاستمرار فى الحوار على هذا النحو خشية أن يتراجع الأمريكى عن اتفاقه ، فآثر أن يحتفظ لنفسه بعظيم تقديره لنفحة الخلود الكامنة فى روح حضارته ، عسيا بأن يكتشف الامريكى ذلك بنفسه يوما ما .

- ١٨ -

عاد رعمسيس الى الجيزة وجمع جنده . فى اليوم التالى وصلت المعدات الالكترونية البالغة الضخامة ، ومعها خبير أمريكى في طول هامان وعرضه . حضر معهم مترجم مصرى شاب يعمل بقسم الحضارة فى إحدى الجامعات الامريكية .

دب العمل بحماس حول الاهرامات حيث دقت الأوتاد الخرسانية فى لمح البصر ، ومدت المجسات المعدنية والقوابض الضخمة لتحيط بأوجه الهرم الأربعة . كان الاختيار قد وقع على هرم خفرع لبداية التجربة . طلب الخبير عشرة جنود فقط ففوجئ بظهورهم على الفور باشارة من سبابة رعمسيس . تردد أن يسأله تفسيراً لذلك لكنه آثر السلامة خشية أن تصيبه اللعنة التى قرأ عنها قبل مجيئه مصر .

قبل أن تدور الآلات سأل رعمسيس المترجم المصرى الشاب عن سر بقائه بأمريكا دون التفكير فى العودة الى مصر . أجابه الشاب بزهو :

- لقد اعتدت الحركة والتقدم والتغيير باستمرارية خلاقة متجددة .

- فلماذا لا تأتى الى هنا لتعلم اخوانك ما تعلمته واعتدت عليه ؟

- قد أفكر فى ذلك يوما ما .

- ومتى يأتى هذا اليوم ؟

- بعد أن تعود الأهرامات الى قواعدها الصحيحة .

- اذن فهى مسألة أيام معدودة .

- هذا إذا نجحنا فى المحاولة .

قال رعمسيس بانزعاج بالغ :

- وهل تشك فى ذلك ؟

- علمتنى أمريكا الشك فى كل شئ .

- يخيل الى أنك لم تعد مصريا .

غطى ضجيج الآلات الدائرة على الصوتين المتحاورين وعلى كل الأصوات . ارتجت الأرض ارتجاجا شديداً وقفزت بسمة الى وجه رعمسيس معلنة عن بلوغ أمل جديد فى النجاح . أخذ الخبير الامريكى يجرى يمينا ويسارا وهو يصدر تعليماته من خلال المترجم الى الجنود العشرة لضبط اتجاه الآلات .

ظهر خفرع ...

صافح رعمسيس بحرارة وقال له :

- لقد فقدت طمأنينة الموت منذ أن انقلب هرمى .

- لنأمل معا أن تعود اليك بإذن الرب .

- انى أتساءل لماذا لم تسند الينا أدوار خلال اجتماعنا السفلى ؟

- من ؟

- أنا وخوفو ومنقرع .

- بل أسند اليكم دور فى غاية الأهمية لكنكم كنتم تتجادلون أثناء الاجتماع .

أصيب خفرع بالحرج الشديد حتى أنه اختفى لبرهة ثم ظهر من جديد ليسأل رعمسيس فى حياء :

- أيمكن لجلالتك أن تذكرنى بهذا الدور حتى أبلغه لزملائى ؟

أخرج رعمسيس من جيبه مذكرة صغيرة نظر فيها بتمهل ثم قال له :

- أن تقوموا بتوعية أحفادكم بضرورة قبول الموت واعتياده ، وأن تحولوا بينهم وبين تقديسه الذى هو فى حقيقة الأمر رفض له .

- ومتى نقوم بهذا الدور الخطير ؟

- حالا وبدون تأخير ، فربما ساهمت تلك التوعية بالمساعدة الفعالة فى استعدال الأهرامات .

اختفى خفرع ....

أعلن الخبير الأمريكى فشله فى تحريك أى جزء من الهرم باستخدام

كل ما لديه من إمكانيات متطورة تمثل أقصى ما توصلت اليه عبقرية العلماء من أفانين الابتكار . نظر اليه رعمسيس نظرة استنكار قاسية فقال له الخبير بهدوء حزين والخجل يتساقط مع عرقه :

– اطمئن ... سنرد اليك كل ما دفعته ثمنا لهذه المعدات ، فالمسؤولية لا تقع الا علينا .

أشعل رعمسيس سيجارة بعصبية فائقة . تملكه شعور عميق بالسخط والغضب من لا شئ حين لم يجد شيئا يوجه اليه سخطه وغضبه ... أى قوة عاتية جبارة تلك التى تتحداه فتهزم جيوشه التى لا حصر لها وتقهر آلاته الالكترونية المستحدثة ؟ .. لابد أن هناك إرادة أقوى من كل الارادات تهيمن على مصير أحفاد مصر وتقرر ألا أمل فى استعدال ما انقلبوا اليه بأهراماتهم المقلوبة ... وحين يضيع هذا الأمل فلا يبقى سوى المــوت .

بيان عسكرى من رعمسيس الثانى الى الشعب المصرى :

« بنى وطنى ... أحملكم مسؤولية الانقلاب وأنذركم بشديد العقاب

. سيأتى يوم تتصارعون فيه على الطعام وقد يفكر بعضكم حينئذ فى أكل البعض الآخر . لا تأخذوا تحذيرى مأخذ الهزل ، فانى أنقل لكم صورة صادقة من رؤيتى التنبؤية لمستقبلكم المترتب عى الانقلاب . ينبغى - وبأسرع من ومض البرق - أن تبدؤوا بإعمال عقولكم وشحذ وجدانكم كى تعتدل الأهرامات من جديد ألا هل بلغت ؟ فلقد أعذر من أنذر » .

- ٣٠ -

فى الطريق الى القصر الكبير طلبت حتشبسوت من حليم حتحوت أن يرتدى زى الفراعنة فلم يمانع ، بل سارع باجابتها الى طلبها بمجرد أن أحضرت له الملابس . استرعى انتباهها بشدة انه المحتجز الوحيد الذى لم يسأل عن سبب احتجازه أو عن المكان الذى تقصده بصحبته سألته عن السبب فأجاب :

- رحلة الحياة متعددة المقاصد ، ولكنها تنتهى دائما الى شئ واحد
.- لكن مقصدنا الآن يعزلك عنها لزمن غير معروف

- سأحاول الاستفادة من زمن العزلة بكتابة عمل جديد

- ألاحظ أنك متوائم مع نفسك فى جميع الظروف .

- وهل لديك بديل ؟

- أنا الجديرة بسؤالك ، فأنت من كبار مفكرى أحفادنا .

أجابها ساخرا :

- والدليل على ذلك أنكم قررتم استضافتى !

- لقد استضافك أخناتون لأن مواقفك لا تمثل فكرك العظيم ... أليس كذلك ؟

- ان العبرة بما أقدمه من فكر بغض النظر عن مواقفى .

- انك مثال صارخ لسلبية المثقفين .

- أختلف معك يا جلالة الملكة ، فكتبى وحدها تبرئني من التهمة .

- الكتب وحدها لا تكفى ، خاصة وأنك تعلم أن غالبية شعبك لا تعرف القراءة والكتابة .

- ان كنت تقصدين الوسائل الحديثة الأخرى كالإذاعة والتلفزيون ، فلها كتابها ولست أدعى أنني واحد منهم .

نظرت إليه حتشبسوت بانبهار لم تملك إخفاءه وقالت له :

- انك زئبقى الإجابة بارع فى المراوغة ، يستحيل الإمساك بك من أية ناحية .

تجاهل إهانتها المستترة وقالها لها :

- لى عند جلالتك رجاء واحد .

- تفضـــل .

- أريد بغرفتى ورقاً وقلماً وسجائر وشايا وبنّا وقليلاً من المشروبات الروحية .

وعدته بصدق شديد .

- ستجد بغرفتك كل ما تحتاج إليه .

قال حليم حتحوت لنفسه ان شهوة إبداع الفن تفوق فى روعتها أمتع الشهوات والملذات ، وسواء ألقى به فى قصر بالصحراء أو فى باخرة على ظهر البحر ، أو حتى فى سرداب تحت الأرض ، فإن الإبداع يعنى حياته وحياته تعنى الإبداع ، ولا معنى لأى شئ فى الوجود يتعارض مع هذا المعنى ، فليفعل الفراعنة ما يشاؤون لتحقيق حلمهم الكبير ، أما هو - رغم تعاطفه مع نواياهم المخلصة - فرؤيته لمسألة الإنقلاب لم تتغير . الأهرام ليست مقلوبة . الأهرام فى وضعها الطبيعى . ما حدث ليس إلا إفرازاً طبيعياً للواقع ، والواقع نفسه ما هو إلا إفراز طبيعى لما يسمى بانقلاب الأهرامات .

بعد جدال طويل اتفق الفراعنه الثلاثة على أن مشاهدة برامج

التليفزيون وتحليلها هى خير وسيلة لدراسة كيفية تفكير أحفادهم المعاصرين والتى تشكل فى النهاية رؤيتهم للحياة والفن والموت . نزلوا بأحد الفنادق الفاخرة بالاسكندرية . حجزوا لأنفسهم جناحاً خاصاً .

***

قبل أن تلملم الشمس اطرافها منسحبة وراء البحر الفسيح ، هفهفت فى الجو نسمات راقصة بلحن الجنيات الساجدات .. ومع اختفاء القرص الدموى انبعث الماضى السحيق من أغواره البعيدة مخيماً على أرواح الفراعنة الثلاثة ، وعبقت رائحته بشجن التاريخ فقالوا كان وكان وكان .. أما الحاضر فقد أجمعوا بالحواس والظنون أنه عديم اللون والطعم والرائحة .. فماذا عن المستقبل ؟

***

فى الليلة الأولى التف الثلاثة حول التليفزيون وأمامهم المشروبات الساخنة والمثلجة والسجائر وراحو يراقبونه فى صمت تام . أمسك كل منهم بقاموسه العصرى للبحث عن الكلمات الصعبة . بعد يومين كاملين انتاب المسئولين بالفندق قلق شديد على النزلاء الثلاثة فراحوا يطرقون أبوابهم ولا مجيب . اقتحموا عليهم الصالة المشتركة بالجناح فاكتشفوا أنهم يغطون فى نوم عميق ، ثم تبين أنهم لم يتناولوا الطعام يوماً كاملاً دون أن يشعروا بذلك .

أعدت لهم مائدة حافلة بالمأكولات والمشروبات تعويضاً عن اليوم المفقود . بعد أن شبعوا عادوا إلى الصالة من جديد وأخذوا يشاهدون البرامج . بعد مرور يومين تكررت نفس الواقعة مرة ثانية . انتاب الشك مدير الفندق وارتاب فى أمر هؤلاء الثلاثة فاتصل بجهات رسمية

يستفسر منها عن حقيقتهم الغامضة . بعد قليل جاء الرد من إدارة يطلق عليها إدارة المخابرات العامة أن هؤلاء الثلاثة هم خوفو وخفرع ومنقرع .

ولما كان مدير الفندق رجلاً واقعياً علمى التفكير منطقى النظرة إلى الأشياء ، فإنه طلب اجازة مفتوحة ليريح أعصابه بعد أن بدأ يشك بشدة فى قواه العقلية . تصادف فى تلك اللحظة وقوف مذيعة حسناء تطلب منه حجز غرفة لإقامتها .

استمعت إلى حواره مع المسئولين فعرفت بوجود الفراعنة بالفندق .

نسيت مسألة الحجز . هرعت إلى جناحهم ومعها جهاز تسجيل صغير .

أحسنوا استقبالها . وافقوا على تسجيل حوار معهم لإذاعته فى برامج المجلة الثقافية الذى تعده وتشرف على تقديمه بالإذاعة .

- ما رأيكم فيما شاهدتم من برامجنا التليفزيونية ؟

التزم الثلاثة الصمت حتى أنها اعتقدت أنهم مازالوا مبهورين لرؤية هذا الجهاز الغريب على عصرهم . كررت السؤال مرة أخرى .

- هل أعجبتكم برامج التليفزيون ؟

قال خوفو :

- نحن الذين نوجه إليك هذا التساؤل راجين أن تتفضلى بالإجابة عليه .

قالت المذيعة الشهيرة بانطلاق يدل على الثقة بما تقول :

- حقيقة انها برامج شيق ومسلية جداً ، خاصة برامج الإعلانات وحفلات سمارة وملوخية الساهرة . قال خوفو بلهجة يقينية .

- لو اخترع التليفزيون فى عصرنا لاختلف الأمر تماماً .

- كيف ؟

يؤلمنى أنك لن تفهمى ما سأقوله مادمت معجبة ببرامجكم .

قالت باستنكار فيه دلال :

- اننى خريجة جامعة معترف بها دولياً .

- أما أنا فلست معترفاً بها لأنها تخرج كائنات لا تلتزم الصدق فى الحديث .

شعرت الحسناء بحرج شديد . كادت تنكمش إلى داخلها أمام هيبة الفرعون وجلاله . أدركت أن عدم مصارحته بحقيقة أمر ما يعرض على الشاشة الصغيرة قد أوقعها فى مأزق لا تحسد عليه . لماذا لم تصارحه بالحقيقة وكيف ورطت نفسها فى مجاملة مجهولة الهدف ؟ .. قالت وقد أحنت رأسها خجلاً :

- آسفة ، لقد كذبت عليك بالفعل ، ويمكننى الآن أن أعبر لك عن رأيى بصراحة .

- لا داعى لذلك ، فإنى أعرفه تماماً .

- إذن فهل يمكننى الاستنارة بآرائكم لإصلاح هذا الجهاز الفاسد ؟

سكت خوفو طويلاً ثم قال :

- عندما تنصلحون أنتم سينصلح تليفزيونكم .

اتجه خفرع إلى غرفة نومه مغالباً التثاؤب المستمر ، أما منقرع فقال لها ملاطفاً وقد استعد لمغادرة القاعة .

- دعيه لحاله فقد أنهينا الحديث .

- قالت المذيعة لخوفو برجاء :

- هل تسمح لى جلالتك بسؤال أخير ؟

- تفضلى .

- لماذا آمنتم بفكرة الخلود ؟

- لأننا رفضنا الموت فقدسناه .

- وهل أثبتت تجربتكم مع الموت - بعد موتكم - صدق إيمانكم بالخلود ؟

- نعم . ولهذا جئنا نعلمكم ونحذركم من تكرار الخطأ .

- لكنكم لم تفعلوا شيئاً بل اكتفيتم بالفرجة على التليفزيون والنوم

نحن نؤمن بأقصر الطرق للعمل الجاد

وماذا رأيتم

- إنكم لا تفهمون سر الحياة . فكيف ستفهمون سر الموت ؟

وقف خوفو فتوقفت المذيعة عن الكلام حياها وانصرف بعث برسالة سرية إلى الملكة حتشبسوت يطلب فيها استضافة كبير كبراء الثقافة بالقصر الكبير ثم استسلم ورفيقاه لليأس باقتناع شديد

***

اقترح منقرع على رفيقيه وسيلة عصرية حديثة للتغلب على ظاهرة النوم التى تفشت بينهم منذ جلسوا إلى التليفزيون .

وافقوا على تنفيذ الاقتراح فاختفى منقرع وعاد بعلبة كبيرة مليئة بالأقراص المنبهة شديدة المفعول . تناول كل منهم عشرة أقراص دفعة واحدة ... لكنهم راحوا فى سبات عميق .

- ٢٢ -

من أرشيف التحقيقات الجارية بالعالم السفلى فى زمن الإستعدال :

س - اسمك ؟

ج - أمـــان .

س - ديانتك ؟

ج - الكـــون .

س - وطنـك ؟

ج - العالـــم ؟

س - أسرتك ؟

ج - البشرية .

س - أنت متهم بالهرب من الحدود المصرية .. ما قولك ؟

ج - أرفض الإجابة .

- ٢٣ -

بحيـاء شديد ضغط اخناتون جرس الباب وانسحب خطوتين إلى الخلف . فتح الباب رجل ناهـز السبعين . فى فمه غليون وفى يده رواية أمريكية . سأله اخناتون برقة :

- سيادتك الدكتور يوسف فخر الدين موسى ؟

أجاب العالم الكبير والأديب الشهير بتواضع شديد :

- نعم ، تفضل بالدخول لو سمحت .

دخل اخناتون . تبع مضيفه إلى غرفة الاستقبال ثم سأله :

- ألا تعرفني ؟

- ومن لا يعرف اخناتون ؟

- لكن ملامح وجهك لم تعترها الدهشة أو التعجب حين رأيتني .

- لقد علمتنى الحياة ألا أندهش لشى قط .

تبادلا نظرات تنم عن المودة المتبادلة .

- جئت زائراً لمنزلك حتى أناقشك فى مسألتين ، الأولى تتعلق بانقلاب الأهرامات ، والثانية بالموت لارتباطه الوثيق بالمسألة الأولى من جهة وبأعمالك الأدبية من جهة أخرى .

اعتدل الدكتور يوسف فى مجلسه محاولاً السيطرة على مشاعره التي تجيش دائماً بالانفعالات الصادقة ثم قال :

- دعنى أكون صريحاً معك .

- هذا ما أبتغيه تماماً .

- لن أناقشك حول المسألة الثانية لأننى أرفضها تماماً .

- لماذا ؟

- لأنى أرى فى الموت ظلماً غير مبرر ، ولذا فإنى أرفض فكرة الحياة أيضاً ما دامت تنتهى بالضرورة إلى الموت .

- لكنك قبلت الحياة حتى هذه اللحظة .

- وهل تسمى حياتى هذه حياة ؟

- أرجو المزيد من التفسير .

استأذنه الدكتور يوسف واتجه إلى إحدى الغرف المجاورة . عاد حاملاً معه آلة كمان موسيقية . كان الحزن مخيماً على وجهه لدرجة أدهشت

أخناتون . بدأ يفسر لضيفه ما أراد على إيقاع حزين لنغمات الكمان كما لو كان يعزف لحن أغنية حفظها عن ظهر قلب . ويستمع أخناتون بدهشة كبيرة إلى الدكتور الذى تشنجت رقبته عـــلى الكمان وهو يغنى ....

« أنا أستاذ جامعى وكاتب روائى ومسرحى . تنشر أبحاثى بالخارج . تترجم أعمالى الأدبية فى أنحاء العالم . لكن عامة الشعب لا يشترون كتبى سواء لأميتهم أو لارتفاع أسعار الطباعة أو لاختفاء النقاد أو لانصراف الناس إلى مشاهدة التليفزيون . أستاذ جامعى . كاتب مسرحى وروائى ولست أملك عربة . أنحشر في المواصلات العام فتسرق حافظتى وتتمزق ملابسى وأشم روائح عفنة وأرى مناظر شاذة مقززة . دائماً ما تجدنى أتردد أمام الفاكهى قبل أن أتخذ قراراً جريئاً بشراء كيلو جرام واحد من الفراولة لأولادى .

توقف الدكتور عن الغناء . أخذ يعزف لحناً حزيناً على الكمان . كانت عيناه تلمعان بدمع محبوس . بعد قليـــل واصـــل الغناء مرة ثانية .....

« أستاذ جامعى وكاتب روائى ومسرحى . لا يمتلك شيئاً غير راتبه الشهرى . مع هذا يحاسبه موظف الضرائب كما لو كان لصاً يتعمد سرقة الدولة . يأخذ منى معظم ما تقاضيته من أجر عن كتاباتى . أستاذ جامعى وكاتب روائى ومسرحى . أؤدى واجبي بأمانة فى كل مجال أعمل به . مع هذا فإنهم يسرقون الحرارة من تليفونى . يعطونها لتليفون الجزار . يطفئون النور أثناء قراءتى . يقطعون الماء أثناء استحمامى . يضاعفون سعر حذائى عشرات المرات .. أما راتبى الشهرى فلا يتغير

أبداً »

يرقب أخناتون الظاهرة بمزيج من الإشفاق والإنبهار والدهشة والحسرة . يلقى الدكتور يوسف بالكمان على أحد المقاعد يستبدل بها أنغاماً يصدرها من فمه ويرقص على « الواحدة ونصف » بوقار شديد مصفقاً بيديه على هذا الإيقاع تراود أخناتون رغبة جامحة فى الرقص معه ، لكنه يخنقها على الفور حين يتذكر ما حدث له فى ملهى شارع الهرم . يتعب الدكتور . تتهالك أنفاسه يسقط جالساً على أحد المقاعد ويقول بسخرية :

- أبعد هذا كله تسميها حياة ؟

- لكنك تقبلها يا عزيزى وترقص !

- على العكس تماماً لقد رفضتها وقررت الموت منذ زمن طويل ، ونفذت قرارى بالفعل .

- إذن فمن هذا الذى أتحدث معه الآن ؟

- إنه جسدى ، أبقيت عليه خدمة لأولادى الذين لا ذنب لهم أن يعانوا اليتم ثمناً لأفكارى .

***

قارن أخناتون بين « أتون » وبين الاله الذى علم أنه بعث إلى أحفاده بعد وفاته بزمان طويل بأنبياء ثلاثة تفيد حصيلته التى كونها من المعلومات منذ بعثه بأن الله هو خالق السموات والأرض ، وأنه خالق أتون أيضاً وهو الذى يحيى ويميت يعز من يشاء ويذل من يشاء أما أعظم صفاته على الإطلاق فهى « العدل »

وتساءل أخناتون بدهشة « لكن ما هذا الذى أسمع ؟ » .

***

قال أخناتون :

- فما رأيك فى انقلاب الأهرامات ؟

- لقد انقلبت فى نفس اليوم الذى نفذت فيه قرارى بالموت .

- وماذا بعد ؟

- أعتقد أنها لن تنعدل إلا إذا عادت إلى روحى من جديد .

- ومتى تعتقد أنها ستعود إليك ؟

- حين أقبل فكرة الموت .

- ومتى تقبلها ؟

- حين تعتدل الأهرامات .

- ومتى يحدث ذلك ؟

- هذا ما لست أعرفه .

صمت أخناتون قليلاً ثم أخرج من جيبه جهازاً إلكترونياً خاطب من خلاله خوفو وخفرع ومنقرع قائلاً بحدة :

- كفاكم نواحاً أيها الفراعنة .. استمعوا إلى الحوار .

أعاد الجهاز إلى جيبه وعاود الحديث إلى مضيفه .

- بغض النظر عن معتقداتك الفكرية عن الحياة والموت ، ماذا تقترح

علينا كى نعدل الأهرامات ؟

- لست أقترح عليكم شيئاً وإنما أقترحه على أحفادكم .

- ما هو ؟

- أن يكفوا عن النفاق كفاً هرمياً من رأس الحكم إلى قاعدة الجمهور .

- لكن النفاق الذى اعتدناه يتجه دائماً من القاعدة إلى الرأس

- ذلك لأن الرأس يقبله ويشجعه . ولهذا دمر اليهود مطاراتنا حين ترك القواد العسكريون قواعدهم وذهبوا فى استقبال وزير الحرب انتظاراً لهبوط طائرته المنحوسة .

- هذا يعنى أنك ترى أن النفاق هو السبب الحقيقى لوقوع ما أسميتموه بالنكسة ؟

- هذا ما أعنيه تماماً ، وهو ما أحذر من استمراريته حتى الآن

- وهل فعلت شيئاً للإعلان عن هذه الدعوة ؟

- لقد نشرت العديد من المقالات مطالباً بالقضاء على النفاق من قمة الهرم لا من قاعدته ، كما طالبت بإنزال عقوبة قطع اللسان من «لغلوغه» على كل من يتملق رئيسه أو حاكمه

تنهد أخناتون محاولاً التنفيس عن همه المتضاعف . ثم اغتصب ابتسامة وقال :

- كم أسعدنى لقاؤك أيها الحفيد العزيز

- يسرنى أن أستضيف جلالتك فى أى وقت تشاء ، وأرجو أن تبعث

بتحياتى الحارة إلى كل أجدادى الفراعنة .

انصرف أخناتون . بعث ببرقية إلى رعمسيس يخبره فيها أنه سيلتزم الراحة يوماً كاملاً يعيد فيه حساباته ويريح رأسه المكدود ، كما طلب منه أن ينوب عنه فى زيارته المقررة للفيلسوف المصرى المعاصر « على عزيز سهدوم » راجياً أن يخاطبه برقة وأن يتحاشى جفاف لهجته العسكرية خلال الحوار .

- ٢٤ -

من خوفو وخفرع ومنقرع إلى شامبليون :

« ... أما وقد اكتشفت الحجر يا شامبليون فبماذا يتذرع الأحفاد من حجج يبررون بها سقوطهم ؟ .. لقد أمسك الأطفال بأجدادهم من أرجلهم رعلقوهم حيث الرؤوس إلى أسفل . دفنت الرؤوس فى التراب ومصر بساط أخضر . تهابطت الأرواح إلى الظلمات والنيل يشق الوادى فى الكرنك والأقصر .. أما بعد اندثار النجوم فسوف تصطف هوائيات الجهاز اللعين لتكون شواهد عصرية لأكبر مقبرة جماعية يشهدها التاريخ » .

امتعض رعمسيس لتكليفه الإضطراري بهذه المهمة لتعارضها مع طبعه الذى اكتسبه بعد خمسة عشر عاماً من حروب طاحنة انتهت باتقافية سلام بينه وبين الحيثيين . لكنه وجدها فرصة لا بأس بها للتأمل فى لحظات لقاء مدير بين رجل فكر ورجل حرب قد تضيف إلى كل منهما شيئاً جديداً . استقبله على عزيز سهدوم ببشاشة ورحب به بعد أن عرفه . قال سهدوم وهو يرتشف الشاى :

- لعلك سمعت عن شعارى الذى لا أمل اعلانه « دع ما للعقل للعقل وما للقلب للقلب » .

تناسى رعمسيس صولاته وجولاته بعربته الحربية فقال :

- يعجبنى هذا الشعار الموضوعى كثيراً .. لكن يبقى أن نطبقه على مشكلتنا .

اعتدل سهدوم فى مجلسه وخلع نظارته السميكة وانطلق فى الحديث:

- إن أشد ما يثيرني ويزعجني من اخوانى الفراعنة المعاصرين قولهم دائماً « ربنا يسهل » أو « ربنا يستر » أو « ربنا يعدلها » .. فكأنما

ربنا متفرغ لمصر فقط دوناً عن بقية كونه العظيم . انهم يقلبون الأشياء بفعلهم ثم يطلبون من ربنا أن يعدلها .. شى محير أيها الجد العظيم .

- أنا معك يا سهدوم فيما تقول .. لكن ما العمل أو بماذا تنصح ؟

- لقد بح صوتى من تكرار النصح بأن يفصلوا ما بين الدنيا والدين .. بين ما يتعلق بالعقل وما يتعلق بالروح . بين ما هو نسبى وما هو مطلق .

- لكنى أعلم أن بدينكم تعاليم رائعة لممارسة حياة دنيوية فاضلة .

- هذا صحيح ، لكنه يخص كل إنسان بمفرده - من وجهة نظرى - ولا يجوز لفرد أن يلزم به جماعة أو لجماعة أن تلزم به فرداً .

- لماذا لا تقولها بصراحة « ان الدين شئ والسياسة شئ آخر » ؟

- ما هذه المقولة إلا استنتاج ضمنى لمقولتى ذات الشمول الأوسع .

- وهل هذا يعدل الأهرام ؟

- بلا أدنى شك .

- كيف ؟

- لقد ألفت عشرات الكتب التى تجيب عن هذا السؤال .

- وهل أثمرت كتبك عن نتيجة فعالة ؟

- لم تثمر إلا عن فقد بصرى واتهامى بالكفر والإلحاد .

- وهل أنت مؤمن بالله ؟

- هذا شئ يخصنى وحدى .

- إذن فقل لى رأيك فى كيفية التصرف لإنجاز مهمتنا ؟

-إقرأوا كتبى وسوف تصلون إلى حل مؤكد « بإذن الله » .

أبرق رعمسيس بشفرة خاصة إلى أخناتون يبلغه فيها بنص الحوار الذى دار بينه وبين سهدوم ، والذى اعتبره حواراً ممتعاً لم يسعد بمثله من قبل طول حياته .

اتصلت حتشبسوت باخناتون تستسفر عن صحته وتسأله عن مصير كل من الدكتور يوسف فخر الدين موسى والدكتور على عزيز سهدوم . أجابها بقوله :

- دعيهما ينعمان بأمان الشيخوخة .

- ٢٦ -

اصطحبت حتشبسوت كبير كبراء الثقافة فى طريقهما إلى قصر الضيافة . اكتشفت من خلال تحاورها معه أنه جاهل بتاريخ آبائه وأجداده جهلاً مفرطاً ، فضلاً عن جهله التام بتاريخ العالم كله ، فقالت له بغيظ شديد :

- أنت لا تصلح إلا لاستعمال عضلاتك فى بار .. من الذى عينك فى هذا المنصب الحساس الخطير :

- الحقيقة أننى فوجئت بتعييني ، ولكن كان ينبغى أن أثبت وجودى .

قالت ساخرة :

- ولهذا انقلبت الأهرامات أمام عينيك الطافحتين بالغباء وأنت واقف تتفرج كالأبله .

قال محتجاً بضعف واضح :

- اننى لا أستحق كل هذه الإهانات .

- بل تستحق الإعدام ، لكنه ليس من سلطتى للأسف .

تساءل بلهجة تنم عن غباء شديد:

- لماذا تذهبون بى إلى القصر ؟

- لأن تدميرك للثقافة دمر الحياة بأكملها فانقلبت الأهرامات .

- لكنى لم أقاوم رغبتكم فى استعدالها .

- لأنك مع من يقلبونها لا تقاوم ، ومع من يعدلونها لا تقاوم . هل قرأت شيئاً للدكتور يوسف فخر الدين ؟

- لم أقرأ له شيئاً .

قالت حتشبسوت وقد نفد صبرها :

عندما تقرأ له ستعرف على الفور أنك منافق كبير ، شأنك فى ذلك شأن غالبية أحفادنا المعاصرين .

كان ينبغى أن تعلم أن الثقافة فكر وفن وعلم وعمل وسلوك ، وأنها المفتاح الوحيد لباب التقدم والتحضر وبدون ثقافة فلا اقتصاد ولا سياسة ولا عدالة فى أى المجالين .. وأنت لا تفهم شيئاً مما أقول . انى أجزم بذلك أيها التعس .

كانا قد دخلا القصر حين وصل بها الانفعال إلي أقصاه حيث دفعته بغلظة إلى غرفته ، ثم استحالت إلى شبح غير مرئى .

- ٣٧ -

من مخطوطات فرعو أندلسية وقعت فى أيدى الأحفاد :

« أمسك القرد بمفاتيح الوكالة وراح يعبث بمحتوياتها فوقع وانكسرت عنقفته . جاء صوت يقول : ارحموا عالماً ضاع بين جهال . حينئذ اقتحم الوكالة فيل ضخم فقلب محتوياتها رأساً على عقب . ثم جاء صوت يقول انها ليست وكالة بل تكية ، فدخل أنسى باب الوكالة أو التكية وقال بفصاحة مقززة : ليس العاقل الذى إذا وقع فى الأمر احتال له ولكن

العاقل يحتال للأمر حتى لا يقع فيه . وإذا بجنية برية شديدة الجمال تظهر متربعة أعلى قمة فى المقلوبات وتقول : بويو واوا باسبا خع أن نيوت ، ششنق حرى شفيت . يربعام نمرات سركن .

فى تلك اللحظة أدركت الكلاب أن الزلزال وشيك الوقوع فعلاً نباحها يصم الآذان » .

- ٢٨ -

قدم مندوب من العالم السفلى حاملاً معه رسالة إلى الفراعنة المنتشرين على أرض مصر تقرر فيها إرسال الفرعون « حور محب » للقيام بدور خطير للمساهمة فى دفع عجلة البحث عن حل لمأساة الأهرام المقلوبة . بعد مضى ثوان من إبلاغ الرسالة ظهر حور محب فى القاهرة تحت شجرة كثيفة الظل فى ساعة الظهيرة الحارقة . جلس زمناً كافياً استطاع خلاله أن يوائم نفسه مع واقعه الجديد على أرض مصر استعداداً لبعث « حفيد مصر الأول » الذى مات منذ عدة أعوام .

استطال زمن جلوسه تحت الشجرة فانبعث ماضيه السحيق من أغواره العميقة ، وغمرته نشوة الفخر بقيادته عصر التطهير من بعد حكم

أخناتون إذ أصدر القرارات والقوانين الآتية :

١ - محظور على الموظفين الماليين والإداريين اضطهاد الفقراء ، ومن يعوق السفن التي تحمل الضرائب إلى خزينة الدولة فإنه يعاقب عقاباً صارماً مثل جدع الأنف والنفى إلى مدينة « ثارو » على الحدود الشمالية الشرقية لمصر .

٢ - معاقبة من يسرق سفناً تحمل ضرائب الدولة وتكون مرسلة إلى الملك أو تحمل أشياء لزوجته أو للمعابد بأن يجرح فى خمسة مواضع من جسده ثم تسترجع منه الأشياء المسروقة .

٣ - ممنوع اضطهاد رجال الشرطة للشعب ، ومن يخالف ذلك يحكم عليه بمائة جلدة .

٤ - يجرى البحث عن موظفين ذوى سيرة حميدة وأخلاق طيبة ليقوموا بجمع الضرائب ، ويعاقب من يتلاعب من موظفى الضرائب أو يظلم الفلاحين .

« وقد وقع اختياره على وزيرين لتنفيذ هذا الأمر فقال لهما : لا تأخذا رشوة من أحد ، وإلا فكيف تستطيعان أن تحكما بالعدل إن كنتما جناة على القانون ؟ » .

٥ - يعفى القضاة من جميع الضرائب إبطالاً للرشوة وحتى لا يكون لديهم عذر فى اتباع الوسائل غير الشريفة .

٦ - معاقبة من يظلم الفلاحين بأخذ حبوب أو خضروات منهم بغير إذن الملك .

٧ - تضاعف مرتبات الموظفين الإداريين لكى يبتعدوا عن الرشوة .

٨ - تمنع القسوة أو زيادة العمل على الأرقاء .

وختم مرسومه بقوله :

« وإذا مد فى أجلى على الأرض لأننى أقوم ببناء عمائر وتماثيل للالهة ، فإننى سأجدد ولادتى مثل القمر منضماً إلى الحياة والخلود والسعادة » .

***

ترحم على أيامه الحافلة بالمآثر ، العبقة برائحة العظمة ، ثم تأهب للقيام بدوره الذى كلف به . أخرج من جيبه بضعة أوراق كتبت فى عصره . تصفحها على مهل ثم أعادها إلى جيبه وقتم قليلاً أمام قبر «الحفيد الأول » المحاط بحراسة عسكرية دون أن يشعر بوجوده أحد .

لم تمض عدة ثوان حتى انبعث الحفيد الأول من قبره عملاقاً كما كان يقال عنه فى عصره ، بنفس الإشعاع النفاذ المنبعث من عينيه اللامعتين ، وبنفس ابتسامته المصرية التى قيل أنها أسرت قلب شعبه . تصافحا بحرارة شديدة أدت إلى عناق حار . بدا أن كلا منهما يعرف صاحبه تمام المعرفة ، أو أن هناك صلة قربى حميمة تجمع بينهما . قال حور محب باعتزاز شديد : ـ

- أهلاً بحفيدى الثائر العملاق

لمعت عينا الحفيد الأول ببريق أخاذ يشع بالقوة وتساءل عن سر بعثه بعد رقاد دام أكثر من عشرة أعوام

قال حور محب :

- لقد كلفت ببعثك للإستنارة برأيك فى أمر خطير .

- ولماذا رأيي أنا ؟

- لن نكتفى به ، إذ كلف زميلى « أمنمحات » ببعث حفيدنا الثانى لنفس السبب ، ترى هل تعرفه ؟

- نعم ، لكن آرائى ثورية قد لا تناسب هذ العصر ، فضلاً عن أنها لم تناسب عصرى نفسه مما أدى بالبلادإلى نكبة أودت بى إلى الموت .

- لا تحزن يا صغيرى ، يكفى أنك كنت صادقاً مع نفسك .

- إن بعض أبنائى وأحفادى يلعنونى فى قبري فيزيدون من آلام ساقى الموجعة .

- هذا ثمن غلطتك الكبرى .

قال الحفيد الأول بسخرية اليائس :

- أهى غلطة واحدة ؟ .. لقد قيل بعد موتى أن عصرى كان حافلاً بالأخطاء المدمرة .

تداركه حور محب بإشفاق شديد :

- لا تحقر من شأن نفسك يا حفيدى ، فلقد غيرت خريطة العالم .

- ما هى تلك الغلطة أيها الجد العظيم ؟

- لقد وفرت لشعبك الطعام ولم توفر له الكلام فوقعت النكبة .

- إنها مسؤولية أتباعى الذين أوليتهم ثقتى فكمموا أفواه شعبى لتحقيق أطماعهم الحقيرة .

- هل كنت تعلم أثناء حكمك - الذى دام ثمانى عشرة عاماً - أنهم يغتصبون زوجات وشقيقات وأمهات المعتقلين وينبشون قبورهم أمام أعينهم ؟

- أقسم أن هذه البشاعات حدثت من خلف ظهرى .

- لكن التاريخ يحملك التبعة وحدك حتى لو كنت صادقاً .

- سامحهم الله وغفر لهم .

- بل عليهم اللعنة أحياء وأموات . دعنا نتحدث فى المهم . ما قولك فيما حدث للأهرام ؟

- أعترف بأننى شريك فى المسئولية مع حفيدكم الثانى الذى خلفنى فى الحكم .

- لقد حدث ما حدث ولا جدوى من نبش الماضى .. ترى ماذا نفعل الآن ؟

- قد لا يعجبك رأيى .

- قله ولا تعبأ بشئ .

- لست أعرف سوى الحلول الثورية .

- المهم أن تقدم لنا حلاً .

- أن يقود الحفيد الثالث ثورة كاسحة يطهر فيها البلاد من كل مخلفات الماضى اللعين .

- هذا كلام نظرى ينقصه التحديد .

- لست أملك سوى هذا القول ، فالواقع المعاصر تعوزنى تفاصيله الذى أعلمه أن هناك تراكمات عديدة أدت إلى انقلاب الأهرام ، وثقتى كبيرة أن الحفيد الثالث قادر على إزالتها لو تمسك بالنقاء .

- كنت أود التأكد من ذلك بنفسى ، لكن التعليمات لم تصلنا من العالم السفلى للاتصال بالحفيد الثالث .

- أنا واثق من قوته .

- لقد سبق أن منحت ثقتك لوزير الحرب فى عصرك فأضاع منك سيناء .

- لم أكن أعرف أنه يتخذ قرارات الحرب هجوماً وانسحاباً وهو مسطول .

- أولاً انى أشك فى ذلك ، ثانياً حتى لو كان يتخذها وهو واعٍ فإن ذلك لم يكن ليغير من واقع الأمر شيئاً لأنه كان يجهل العسكرية الحديثة ، ومع هذا فالمسؤولية تقع عليك بالدرجة الأولى لأنك لم تكن ماهراً فى المناورات السياسية كحفيدنا الثانى الذى برع فيها ولم يبرع فى شئ سواها .

- لقد كان الصدق عندى كلاً لا يتجزأ ولهذا خضت ثلاث حروب فى عهدى ، منهم واحدة خارج أرضى وللأسف هزمت فيهم جميعاً .

بدا التأثر الشديد على الحفيد الأول . اكتسى وجهه بمسحة حزن بالغ ، حين ربت حور محب على كتفه بحنان أبوى وقال له :

- لقد كنت أول حفيد شرعى لنا يحكم البلاد من بعدنا ، ورغم أن أخطاءك قد أودت بحياتك وحياة الآلاف من أحفادنا الشجعان فإننا نعتبر

ما حدث قدراً قرره الاله ، أما قدرك فأن يباركك من استمتعوا بالطعـام وان يلعنك من حرموا من الكـلام . ولك الآن أن تعود إلى قبرك .

– وداعاً يا جدى العظيم ، ولا تنس وصيتى .. الحفيد الثالث وثورة التطهير .

– ٢٩ –

من مذكرات الحفيد الأول عن الذين وفر لهم الطعام :

« اننى فلاح وما زالت عائلتى تشتغل بالزراعة ، وانى لأذكر كيف كان الفلاحون يشحنون فى اللوريات أيام الإنتخابات ، إذ كان ملاك الأرض يرسلونهم إلى مراكز الإقتراع ، والويل للقرية التى كان يجرؤ واحد من أهلها على إعطاء صوته للمرشح المنافس لسيد المنطقة . وإزاء هذا المشهد لم أكن أعتقد مطلقاً أن ما أراه مظهر من مظاهر الديمقراطية»

لكن الحفيد نفسه ألغى النظام بأكمله وانفرد بالحكم حتى توقف قلبه عن النبض .

ما أن اختفى حور محب بعد أن أدى دوره حتى ظهر أخناتون وكانت حالته الصحيه على ما يرام . تهامس بقية الفراعنة بإشارات تدل على فهمهم للعبة الذكية التى لعبها أخناتون بادعائه المرض . إلا أنهم أجمعوا على تأييده لموقفه النابه إذ تحاشى به وقوع صدام خطير بينه وبين حور محب الذى أهان الاله آتون ومحا آثاره من المعابد ، وأعاد للاله آمون هيبته القديمة بمجرد توليه مقاليد الحكم .

وبينما كان الفراعنة يتهامسون ويتشاورون إذ برسالة شفرية تصلهم فجأة من حتشبسوت . قالت ان هناك عمالقة بالمئات يهاجمون القصر الكبير بأسلحة غريبة مصنوعة من الدولارات والماركات والإسترليني والبيزيتات والجنيهات المصرية ، ولما تصدت لهم حتشبسوت بشخصها مستفسرة عن سبب الهجوم طلبوا منها أن تخرج لهم « قبطان » من القصر حتى يكفوا عن الهجوم ، لكنها رفضت وما زالت تجادلهم حتى ساعة إرسال البرقية انتظاراً لوصول نجدة فرعونية عاجلة لإنقاذ الموقف .

بعث رعمسيس بألف جندى من جنوده . لم يكد العمالقة يرونهم حتى فرّوا هاربين - تاركين قبطاناً بالقصر - لكن حتشبسوت نجحت فى

الإمساك بواحد منهم .

كان يصرخ كما النساء وهى تحاول تهدئته دون جدوى . إضطرت فى النهاية إلى صفعه بعنف على وجهه فالتزم الصمت . قال لها بتوسل كالأطفال :

- لماذا تمسكين بى ؟ ؟ اننى مجرد صحافى حضرت مع العمالقة بناء على طلبهم .

- لماذا طلبوك ؟

- لأغطى النبأ صحفياً .

- أى نبأ ؟

- نبأ اختطاف قبطان مراد عثمان .

ضحكت حتشبسوت بقوة كما يضحك الرجال . قالت له مداعبة :

- سوف أطلق سراحك بشرط واحد ، هو أن تتخيل نجاح العمالقة فى اختطاف قبطان ، ثم تكتب أمامى الآن ما كنت تنوى كتابته فى جريدتك بعد نجاح عملية الإختطاف .

- هل جلالتك جادة فيما تقولين ؟

أطلق الصحافى سؤاله كمن وهبت له حياة كادت أن تمنع عنه ، فأجابته بنبرة صارمة :

- لم تحكم مصر امرأة جادة مثلى .

أمسك بقلمه وراح يكتب بانهماك واستغراق كاملين .

« بالرغم من الحملة الضارية التى شنها بعض الصحفيين على قبطان مراد عثمان وأمثاله من عظماء رجال الأعمال فى بلادنا العامرة ، وبالرغم من محاولة تشويه سمعته والإساءة إلى هيبته ومهابته ، فقد نجحنا فى إخراجه من قصر الضيافة إلى الحياة . ان قبطان مراد عثمان خير مثال للوطنى المعاصر الذي يغدق بملايينه التى لا حصر لها على الفقراء من أبناء الشعب المسكين ، فيبنى لهم المدارس والمستشفيات ويؤسس لهم المصانع والشركات .. وليس من العدل بأى حال أن يكون القصر الكبير مصيره . وليعلم الجميع أن قبطان عثمان ورجاله وكل من هم على شاكلته من العظماء لن يموتوا أبد الدهر إذ تخلدهم أعمالهم الوطنية العظيمة فى خدمة البلاد .. والله أكبر ويحيا الشعب » .

انتهى الصحافى العملاق من كتابته ثم قال للملكة بخوف التلميذ الخائب :

- هذا ما كنت أنوى نشره بعد إخراج قبطان بك من القصر ، وكنت سأتقاضى فى مقابله أجراً كبيراً .

انفجرت حتشبسوت فى الضحك ثم توقفت عنه فجأة .

قالت بحزم :

- سوف نضعك معه أيها الصحفى العملاق .

بهت الرجل . اصفر وجهه وازرق وبان عليه رعب شديد .

- وأين وعدك لى يا جلالة الملكة المعظمة ؟

- ان التنكر للوعد مع أمثالك هو الوفاء بعينه . ألم تسمع عن قول سيدكم على بن أبى طالب الشهير بأن « الغدر بأهل الغدر وفاء عند الله

والوفاء بأهل الغدر غدر عند الله » ؟

– لكنى لست الصحفى الوحيد الذى يتبع هذا الأسلوب .

– أعرف ذلك .. وسنكتفى باستضافتك فى القصر كممثل لكل من هم على شاكلتك .

لم يتمالك العملاق نفسه من البكاء .. تعالت صيحاته كما الأطفال ، لكن حتشبسوت لم تعبأ به . وضعته فى غرفته ثم تلاشت .

- ٣١ -

يجلس الكاتب المصرى القرفصاء ممسكاً بقلمه وقرطاسه .. لكنه لم يعد يجد كلاماً يكتبه .

بعث أمنمحات فى القاهرة فجأة . لم يكن مدعماً بالمعلومات الكافية عن مكان الحفيد الثانى . سأل عن مقبرته فقيل له انها تقع فى ضاحية من ضواحى القاهرة . أعطى بياناً تفصيلياً عن قصة حياته ووفاته . شعر أمنمحات بتعاطف شديد مع روح هذا الحفيد ، فقد أردت مؤامرة بحياته هو الآخر .

توجه أمنمحات إلى القبر . وقف أمام النصب التذكار خاشعاً يسترجع تاريخه بدهشة بالغة . قال ان التاريخ يعيد نفسه دائماً ، فهو أيضاً من أصل نوبى ، وهو الذى أعتلى عرش مصر كأقوى رجل دولة ، ثم تفنن فى تدبير أمور مملكته وأحسن تنظيمها ونشر الأمن والسلام فى ربوعها . تذكر حملته الحربية التأديبية التى شنها ضد الليبيين حين عددوا ملكه . حدث نفس الشئ مع الحفيد الثانى . تذكر أيضاً وصايا الحكيم الفرعونى « ايبو - ور » الذى قال :

« لقد أصبح الناس كقطيع من غير راع قد استبد به الروع . هناك من كان يرتدى الملابس الجميلة ثم أصبح يغدو فى أسمال بالية ، فى حين أن من لم يكن يستطيع الحصول على ملبس له أصبح يرتدى الكتان الفاخر

.. هاك من لم يكن يجد بالأمس خبزاً أصبح اليوم يمتلك شونة . غير أنه يملأ أهراءه بمتعلقات غيره . لقد أصبحت البلاد خراباً وليس هناك من يهتم بها وليس من يذرف الدمع عليها .. لقد حدث ما لم يحدث من قبل » .

امتلأ قلب أمنمحات بالحسرة وهو يذكر خلاصة تجربته التى قدمها مكتوبة لولده سنوسرت بعد نجاته من محاولة اغتياله الأولى .

« كن على حذر من أتباعك . لا تقترب منهم ولكن لا تكن وحيداً . لا تثق فى أخيك ولا تعرف لك صاحباً ولا تقرب إليك شخصاً . ان هذا لا يجدى . ان نمت فدع قلبك يحرسك فليس الأعوان لوقت الشدة . انى أعطيت الفقير وأطعمت اليتيم وحققت أهداف من لا أمل له ، ولكن ثمن العطف كان خيانة . ان من أكل خبزى احتقرنى ومن أعنته رمانى حين اشتد ساعده ، ومن كسوتهم بكتانى الرقيق نظروا إلىّ كما ينظرون إلى خيال ، ومن دهنتهم بعطورى رشّوا علىّ الماء » .

امتثل أمنمحات لواقعه الجديد . لقد صدرت إليه التعليمات بامتصاص تجربة الحفيد الثانى لتسخيرها فى خدمة الرسالة الفرعونية المقدسة . أجرى المراسم اللازمة لبعث الحفيد الثانى فظهر أمامه على الفور . تعانقا بحرارة وراحا يبكيان معاً بلا تحفظ . بعد قليل هدأت ثائرتهما ثم غمرتهما السكينة والطمأنينة . قال الحفيد الثانى بمحبة بالغة :

– لقد كنت أنتظرك يا جدى الكبير .. أنت بصفة خاصة .

– انى أتفهم مشاعرك وأقدرها أكثر من أى مخلوق آخر .

– كلانا راح ضحية الجحود ونكران الجميل .

– أعلم ذلك أيها الحفيد العبقرى . لكن لا بد أن لكل منا أخطاءه التي أدت إلى نهايته .

– دعنا نتصارح بهذه الأخطاء فنحن فى حل من المسؤولية الدنيوية تماماً .

– يؤسفنى أننى مطالب بالحديث عن أخطائك فقط .

– كنت أظنك ديمقراطياً مثلى .

– وهل تعتقد أنك كنت ديموقراطياً حقيقياً ؟

– هذا شئ لا يقبل الشك .

– بل كنت مجرد محاولة مترددة لم تكتمل .

– كيف ؟

– كانت ديموقراطيتك لا تمثل إلا وجهة نظرك فحسب ، كما أن الديموقراطية لا تمنح .

– لقد عمت شهرتى أرجاء العالم .

– لا يهمنى هذا بقدر ما يهمنى رأى أحفادى المعاصرين .

تنحنح الحفيد الثانى وأصدر بعض الآهات والآآت من حنجرته وقال بمرارة :

– آه .. هؤلاء الجاحدون الذين يلعنونى اليوم على صفحات الجرائد بعد أن ألهونى من قبل .

- دعنا من الجاحدين .. سأتكلم عن المعتدلين فقط .

سأله الحفيد بصوته الجهورى الرنان :

- ماذا يقول عنى هؤلاء القوم ؟

- يقولون أنك وقعت فى الخطأ نفسه الذى ارتكبه حفيدنا الأول ولكن بشكل عكسى .

- ما معنى هذا ؟

- معناه أنك وفرت لهم الكلام ولم توفر لهم الطعام .

أشعل الحفيد الثانى غليونه بحركة مصنوعة . تساءل بدهاء بينما عيناه منصبتان على الطباق المشتعل .

- كيف تقول أننى وفرت لهم الكلام وجلالتك لم تعترف بديموقراطيتى منذ قليل ؟

- ما زلت مصراً على رأيى ، فأنت لم توفر لهم إلا الكلام الذى كنت تحب أن تسمعه ، ولهذا فأنت مسئول بشكل أو بآخر عن انقلاب الأبراعات .

- معنى هذا أننى فشلت فى توفير الطعام والكلام معاً ؟

- ليس كذلك تماماً ، وإنما شئ قريب من هذا المعنى .

- وانتصارى فى الحرب ، وجهودى من أجل السلام ، وإستعادتى لأرض سيناء المحتلة ؟؟

بدا واضحاً أن الفرعون قد استدرجه فى الحديث ليصل به إلى هذه النقطة فيقول له مؤنباً :

- انك لم تحقق هذه الأمجاد بمفردك بل بمساندة أحفادنا الذين عاصروك ، وما كان يصح أبداً أن تنسب المجد لنفسك وحدك فى مسلسلاتك الدراماتيكية السياسية البارعة .

- إذن فأنا غير مشكور فى جميع الأحوال .

- بل مشكور على قدر اجتهادك فقط ، ثم لا تنس أن واجبك كفرعون كان يقتضى القيام بتلك الانجازات ، فأنت لم تتصدق على شعبك بما فعلت .

قال الحفيد الثانى بتأثر شديد :

- لكم أنت قاس عليّ أيها الجد الكبير .

- انى أقسو عليك بقدر اعترافى بقوتك ودهائك الذى حير العالم ، فلو كنت فرعوناً عادياً ما أوليتك مثل هذا الاهتمام .

- شكراً يا جلالة الملك .

- والآن قل لى ماذا تفعل فى الكارثة التي حلت بنا والتي أكرر أنك شريك مع حفيدنا الأول فى المسؤولية عن وقوعها ؟

- جلالتك تضطرنى للدفاع عن نفسى من جديد .

- لن أسمع منك دفاعاً يا صغيرى .. تكلم الآن فى المفيد فقط .

- حسن .. رأيى أن مفتاح الحل فى يد نائبى « الحفيد الثالث » .

لاحظ أمنمحات أن الحفيدين يوكلان مهمة تصحيح أخطائهما إلى الحفيد الثالث .

- بماذا تنصحه إذن لو افترضنا ذلك ؟

- أن يوفر لشعبه حرية الطعام والكلام معاً .

- أنى لأحسدك على ذكائك الشديد وأتعجب فى الوقت ذاته كيف سمحت له أن أن يتخلى عنك فى أيامك الأخيرة فيدهمك الغرور وتستبد بك الكبرياء .

بدا الوجوم على وجه الحفيد الثانى . تقلصت عضلات فكيه فى حركات عصبية متعاقبة ثم قال :

- أرجو ألا تذكرنى بنهايتى أيها الفرعون الجليل . لقد جعلوا من جسدى مصفاة برشاشاتهم الغادرة .

اعتذر له أمنمحات بأدب فائق عن إثارة وجيعته الأليمة ، ثم عبر عن امتنانه بلقائه واعاده إلى مقبرته .. واختفى .

- ٣٣ -

من أقوال الحفيد الثانى لشعبه :

« أقول لكم بصدق وأمانة .. اننى أفضل احترام العالم ولو بغير عطف على عطف العالم إذا كان بغير احترام » .

لكن الحفيد جمع فى أواخر أيامه آلافاً من محكوميه ، وكانوا ينتمون إلى كل الملل والفكر والأديان المصرية المختلفة ثم وضعهم فى مبنى كبير - يختلف كثيراً عن قصر الضيافة الفرعونى - وقال عن أحدهم وهو فى آخر ثورات غضبه .

- لقد ألقيت به فى السجن كالكلب !

- ٣٤ -

تحت ظل أبى الهول عقد الاجتماع المتفق عليه حول مائدة مستديرة غير مرئية . كان الاجتماع بلا رئيس . حضر الاجتماع خوفو وخفرع ومنقرع وأخناتون ورعمسيس وحور محب وأمنمحات . تنبه الجمع إلى أن الملكة حتشبسوت هى الوحيدة التي تخلفت عن الحضور دونما سبب معلوم . قرروا الاتصال بها فى كل مكان بعد استعراض سريع لجدول الأعمال . اتفقوا بعد المداولة على إقرار خطين رئيسيين للعمل فى المرحلة القادمة .

الأول هو القيام بزيارة جماعية للقصر الكبير ومقابلة الضيوف للاستزادة من معرفة أسباب صمتهم وعدم استنكارهم لانقلاب

الأهـرامات .

الثانى هو القيام بجولة أخرى يلتقون فيها مباشرة بأحفادهم من جميع الفئات الممثلة للشعب ، بحيث يساهم هذا الالتحام المباشر بالشعب فى إنجاز الرسالة الفرعونية المقدسة ، وخلال إجراء الاتصالات المختلفة للبحث عن حتشبسوت تساءل رعمسيس قائلاً :

- لماذا لا نبعث بفرعون إلى الحفيد الثالث ؟

قال أخناتون :

- إنها فكرة منطقية قد تكون ذات نفع كبير

قال حور محب :

- لم تصلنا تعليمات سفلية بلقائه حتى الآن

تساءل أمنمحات :

- لست أدرى ما السبب فى ذلك !

فقال منقرع :

- لعلهم يعلمون أنه حديث عهد بالحكم ولذا فهم يتركون له فسحة من الزمان يكون فيها تحت الاختبار وتتضح خلالها إمكانياته ونواياه

أكد حور محب على هذا القول بقوله :

- يبدو أن هذا صحيح ، فلقد سمعت إشاعات سفلية قبل بعثى الأخير تقول بأنه موضوع بالفعل تحت الاختبار وإن كان بعض الفراعين يتنبأ له بالنجاح مقدماً .

سارع منقرع محتداً :

- إن تنبوءات العالم السفلى لا تقاس بمقاييسنا هنا على سطح الأرض ، وما علينا إلا أن نقيم استنتاجاتنا على أساس من الواقع

- لن يتأتى لنا هذا إلا بعد تنفيذ البند الثانى من جدول الأعمال

- إذن فنحن متفقون

استمرت الاتصالات العلوية والسفلية والوسطية تجرى للبحث عن حتشبسوت دون جدوى . انتاب القلق كل الفراعنة المبعوثين ، أما فراعنة التوابيت فقد أضافوا السر إلى كنوز أسرارهم بينما عجز جن البر والبحر عن الإهتداء إليه .

دبت حركة محمومة فى البحث عنها ببث آلاف الجنود فى كل مكان بمصر دون أن يعثروا عليها . ظل الاجتماع منعقداً لبذل المزيد من الجهد للعثور على الملكة المختلفية .

***

بعد لأى طويل بات الفراعنة يعتقدون أن مليكتهم قد اختطفت بفعل القوى المضادة للاستعدال ، وأنها قد أخفيت كرهينة فى مكان مجهول . نشب خلاف كبير بين المجتمعين حول ما إذا كان الأهم أن يجدوا الملكة المخطوفة أم أن يمضوا فى تنفيذ بندى الإتفاق لتحقيق الهدف الأساسى المنشود . حاول رعمسيس حسم الخلاف بقوله :

- ان الضيوف لن يضيفوا جديداً ، فقد سبق أن أصدرنا عليهم حكمنا ، أما الذى ينبغى أن نفعله فهو أن نعذب أجسادهم حتى يعترفوا لنا بمكان إخفاء الملكة .

صاح أخناتون :

- انى أعترض بشدة على اتباع هذه الوسيلة غير المتحضرة لانتزاع اعتراف قد لا يكون إلا وهماً خادعاً ، فمن يدرينا بالمختطفين الحقيقين للملكة ؟

قال رعمسيس بهدوء :

- لقد قلت كلمتى ، وأنتم أحرار فيما تتفقون عليه .

حدثت هزة أرضية مفاجئة اندهش لها الفراعنة وتسمرت أعينهم على أبى الهول الذي نطق بصوت غائر فى العمق وقال :

- لست أرى تعارضاً بين تنفيذ البند الأول من جدول الأعمال وبين البحث عن الملكة من خلال استجوابكم للضيوف ، وحتى لا يطول الخلاف بينكم فإنى أقترح إجراء تصويت عاجل حول اقتراحى هذا .

انتهى التصويت إلى الأخذ برأى أبى الهول ، فتوجه الفراعنة السبعة إلى القصر الكبير فى موكب حافل بمظاهر الجلال والعظمة ، وإن كان غير مرئى للشعب على طول الطريق .

***

تعالت صيحات الاحتجاج والاستنكار من كافة ضيوف القصر على طول زمن الاستضافة عدا حليم حتحوت . كان واضحاً أن الضيوف يكنون له احتراماً خاصاً حتى أنهم فوضوا إليه الحديث نيابة عنهم ، لكن هذا الاحترام كان يغلف شعوراً خفياً تجاهه بالغيرة والحقد والكراهية وصل عند البعض منهم إلى الرغبة فى قتله . أما الفراعنة فقد أنابوا حور محب للتحدث مع حليم حتحوت ، وجلسوا فى صمت الموتى . قال

حليم بهدوء شديد :

- نود أن نعرف ما هو المطلوب منا على وجه التحديد

- أن تدلنا أولاً عن المكان الذى أخفيتم فيه الملكة .

- إذن فنحن متهمون بخطفها

- نعم !

قال حليم بلهجة تفوح برائحة التحدى :

- وأنت أيضاً متهم بخطف الملكة « عنخسنباتن » أرملة توت عنخ آمون

بوغت حور محب فكاد يفقد صوابه .

- ماذا تقول أيها الرجل المعتوه ؟ .. هل جننت حتى تهرف بما لا تعرف ؟

- إننى للأسف أعرف ولست أهرف .

بدا الارتباك على وجه حور محب . تكاثفت سحب الماضى الغابر أمام عينيه مؤكدة أن الوصول إلى مقعد كبير الفراعنة أمر لا بد أن يقترن بسيل من الدماء .

- أريد إجابة محددة .. أين حتشبسوت ؟

- لسنا نعرف

- هل تقسم على ذلك ؟

- نعم ، لكن بمن أقسم ؟

- بعظمة الفرعون وجلالته

- أى فرعون ؟ .. الحالى أم الذي رحل ؟

- الحالى طبعاً

- ولماذا لا أقسم بجلالة الفرعون الذى رحل ؟

- لأنه رحل

أخرج حليم حتحوت من جيبه ثعباناً وعلقه حول رقبته ونظر إلى أخناتون نظرة لوم قاسية . رفع الثعبان رأسه محملقاً فى وجه حور محب . قال حليم :

- أرأيتم أنكم مسؤلون مثلنا تماماً عما صرنا إليه ؟

- ماذا تقصد أيها العجوز المتخابث ؟

زحف الثعبان على جسد حليم حتى استقر على الأرض محملقاً فى وجه حور محب الذى لم يتلفت إليه على الإطلاق .

قال حليم بعد أن اختفى الثعبان فجأة :

- لقد علمتمونا كيف نمحو أثر الفرعون الذى يرحل تمجيداً ونفاقاً لأى فرعون جديد

- هذا محض افتراء

- بل انه حقيقة . والدليل على ذلك أسوقه من واقع تاريخ جلالتك .. ألم تمح اسم توت عنخ آمون من النقوش التي كتبت فى عهده ؟ .. ألم تفقأ عينيه على جدران المعابد وتقطع رؤوس تماثيله حتى يبعث بلا رقبة ؟ . ألم يفعل غيرك من الفراعنة مثلما فعلت بآثار من سبقوهم

كيداً وانتقاماً ؟ .

- انى منتظر سماع قسمك ، وكفاك مجادلة

- أقسم بالله العظيم أننا لا نعرف شيئاً عن جلالة الملكة المختفية

- اذن فأين ذهبت ؟

- لعلها تعيش الآن تجربة عاطفية مع حفيد من أحفادها ، ولا تنس يا مولانا أنها امرأة جميلة

- إن التحاور معك مهمة عسيرة للغاية

- أفهم من هذا أن الاستجواب قد انتهى

- لم تتعجل النهاية ؟

- لأننى لم أتوصل حتى الآن إلى نهاية لروايتى التي أكتبها ، فمجيؤكم عطلنى

- ألن تضيفوا لنا جديداً حول مسألة الانقلاب ؟

- بصفتى نائباً للمجموعة فانى ما زلت مصراً على أن الأهرامات ليست مقلوبة ، وليس عندى جديد أضيفه

- لقد كان هذا رأيك قبل استضافتك بالقصر

- وما زال هو رأيى بعد الاستضافة أيضاً

- لكنه لا يمثل رأى بقية الضيوف

- لقد فوضونى أمامك للحديث نيابة عنهم ، وأنا واثق أن الأهرام فى نظرهم غير مقلوبة كما سبق أن أوضحت لزميلك أخناتون ، فضلاً عن

أنهم ليسوا من أصحاب الرأى على الإطلاق .

- شكراً

فوجى حور محب بالثعبان يخرج من جيبه فأمسك به وألقاه بعنف على الأرض وانصرف غاضباً .

***

اجتمع الفراعنة وحدهم باحدى غرف القصر الكبير وراحوا يوجهون الانتقادات إلى أسلوب حور محب فى تحاوره مع حليم حتحوت الذى تفوق عليه بمنطقه الواضح دون أن يضيف جديداً سواء لما يتعلق بمسألة الانقلاب أو بمسألة اختفاء الملكة . وقع الخلاف بينهم من جديد حول كيفية التصرف فى مواجهة المأزق وتساءل أخناتون ساخراً :

- انى أتعجب كيف نثق بقدرتنا على إنجاز عمل خطير كاستعدال الأهرامات بينما نحن عاجزون عن معرفة مصير مليكتنا المختفية .

خلع رعمسيس تاجه ثم أعاد وضعه على رأسه بهدوء وقال انه وجد الحل . غادر قاعة الاجتماع متجهاً إلى سيناء وبقى الفراعنة فى انتظاره .

- ٣٥ -

هطلت سماء مصر سيلاً من الأمطار . كان الماء ساخناً لدرجة الغليان بحيث غلفته الأبخرة الحارة التى كانت تتصاعد منه . لكن الماء كان يتحول إلى قطع من الجليد بمجرد ملامسته الأرض . ومن الأبخرة والجليد والضباب والأمطار اكتسى الوادى بغلاف سحرى عجيب أهاج فى الكون ذكرى لحظات الخلق الأولى . وقال قائل انها الخلية الأولى فقال آخر بل انه آدم وحواء . وقد كان من العجيب أن يثمر تعانق الأنصاف السفلية للمخلوقات عن تناثر ملايين من أبناء وأحفاد لا حصر لهم ولا لزوم . وكان من الأعجب أن يكتب على هؤلاء المتناثرين أن يمارسوا الحياة استعداداً للموت فلا أدرك أحد منهم سبب حياته ولا أدرك آخر سبب موته لكن الجميع كانوا على يقين من أنه فى سراديب الأهرام الثلاثة تنام أسرار الموت جنباً إلى جنب مع أسرار الحياة .

وحين تنقلب الأهرامات ، فإن الأسرار تصبح فى خطر .

***

قال الأمريكى بغرور فج :

– ها قد عدت إلىّ ، وسوف تعود مرة ثانية وثالثة لأنك ستظل دائماً بحاجة إلىّ .

لم يعلق رعمسيس وإنما اكتفى بالنظر فى غضب مقرون بالدهشة إلى الملابس المدنيةالأنيقة التى يرتديها الجندى الأمريكى حارس السلام المزعوم . ابتلع رعمسيس غضبه فى صمت وحين وجد المخرج قال :

– لقد سبق أن عجزتم عن الوفاء بحاجتنا منذ التجربة الأولى لاستعدال الأهرام

– إذا كان الأمر كذلك فلماذا عدت ؟

– لأن حضارتى قائمة على الصبر

– أرد أن أذكرك بأننا غير مسئولين عن فشلنا فى تلك التجربة

– إذن فلماذا أعدتم لنا أموالنا ؟

– لقدأعدناها إليكم كمعونةلأنكم مازلتم فقراء بالرغم من تاريخكم الطويل .

شعر رعمسيس بغصة فى حلقه وطعنة فى قلبه . جال بخاطره أن يفتك بالأمريكى بضربة من يده الفولاذية تحيله فى التو واللحظة إلى أثر بعد عين ، لكنه تمالك نفسه وقال له :

- قلبى يحدثنى بأنكم سبب بلائنا

- دعك من حديث القلب لأنى لست أفهمه وقل لى ماذا تريد

- أريد جهازاً من أجهزتكم الحديثة للكشف عن مكان ملكتنا المختفية

- للأسف هذا غير ممكن

- لماذا ؟

- للسبب نفسه الذى من أجله فشلت تجربتنا الأولى معكم

- لم لا تدلنى عليه ؟

- ألم تسمع مَن قبل عن لعنة الفراعنة ؟

- لعنتنا تقتصر على من ينتهك قدسية مقابرنا فحسب

- لقد مات الخبير الأمريكى الذى أشرف على محاولة الاستعدال بمجرد عودته إلى وطنه . أصيب بشلل هستيرى مخيف . كان يردد أسماء ملوككم خوفو خفرع ومنقرع أثناء هذيانه المستمر

- انك تنكر حديث القلب ثم تعود فتتحدث بلغته .. من قال أنه مات بلعنتنا ؟ .. لم لا تقول « وافاه الأجل » ؟

- لا جدوى من مثل هذه المجادلة . فلنتكلم فى المهم

- حسن .. نحن على استعداد لشراء الجهاز وما عليكم إلا أن تدربونا على استخدامه بمعرفتنا حتى لا يتعرض أحدكم للعنتنا المزعومة

- حتى لو فعلنا هذا فقد يموت المدرب

- نحن نضمن لكم حياته ، فالموت ليس يعنى نهاية الحياة

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى الأمريكى ..

قال بلهجة تنم عن نفاد الصبر :

- آسف . طلبكم مرفوض

- ولم العجلة . لماذا لا تعرض طلبنا على بنى قومك فربما يقررون غير ما قررت ؟

- لقد سبق أن فوضونى كعسكرى قوى ثرى فى التعامل مع العالم .

يئس رعمسيس من محاورته . عاوده خاطر الشر من جديد . لكنه فضل أن يختفى من أمامه للحيلولة دون قتله بلا تفويض من زملائه الفراعنة .

ما أن اختفى رعمسيس حتى أحضر الأمريكى جهازاً صغيراً . ضغط عليه بأصابعه على عدة أزرار صغيرة فتحركت بعض الأشياء المتعلقة بالجهاز وظهرت صورة حتشبسوت على شاشة بيضاء فى غرفة مغلقة ومعها رجل لا يدرى بوجودها .

استطاع الأمريكى بعد إجراء حسابات رقمية بسيطة أن يهتدى إلى مكان اختفاء الملكة .

تمنى أن يحضر رعمسيس مرة أخرى ليدله على هذا الموقع تكفيراً

عن شعوره بالذنب لسوء معاملته له فى لقائهما الأخير .

***

عاد رعمسيس إلى زملائه معلناً فشله . أقام الفراعنة حفل عزاء أبنوا فيه حتشبسوت بعد أن خلعوا عليها لقب الشهيدة الأولى للاستعدال . رفض الشيخ المقرئ تلاوة القرآن قبل أن يتقاضى أجراً قدره ألف جنيه مصرى .

كان اليأس قد تمكن منهم جميعاً بعد أن أعيتهم الحيل فى العثور عليها . قالوا ان كلاً منهم قد أصبح معرضاً لعملية خطف مشابهة باختفاء جسدى يشابه الموت تماماً رغم استحالة أن يموت المرء مرتين . وأمام تقديسهم لمسئوليتهم فإنهم رفعوا شعاراً يلتزمون به حتى النهاية ... « الاستعدال أو الاستشهاد » .

***

بدأ الفراعنة السبعة مرحلة عمل جديدة ، ولتوحيد كلمتهم وتنظيم عملهم قرروا أن ينتخبوا فيما بينهم رئيساً رمزياً فاختاروا رعمسيس الثانى . بث الرئيس فيهم روح القوة والأمل لمعاودة نشاطهم من جديد بهمة وحماس . اتخذوا قراراً بتوجيه الشكر إلى خوفو وخفرع ومنقرع لاكتشافهم مسئولية كبير كبراء الثقافة عن إفساد الذوق الوجدانى المصرى ، ثم اتفقوا على أن يعاقب هذا الرجل عقاباً صارماً أثناء استضافته بالقصر دون بقية زملائه الآخرين .

أحضروا له مئات الكتب التى تحكى عن تاريخ مصر منذ نزول الأديان السماوية حتى نهاية ١٩٨١ ، على أن يقرأ منها كل يوم كتاباً

يمتحن فيه في اليوم التالى وإلا حرم من الطعام فى ذلك اليوم ، كما وزعوا نسخاً أخرى من هذه الكتب على بقية الضيوف لقراءتها بصفة غير إلزامية .

بعد أيام قلائل ألقى الضيوف بكتبهم جميعاً بلا اكتراث إلى حليم حتحوت . حدد لهم حليم ساعات محددة من اليوم يلخص لهم فيها مضامين هذه الكتب . كان يؤدى هذه المهمة بسعادة كبيرة ورجاء قليل . أما كبير كبراء الثقافة فكان لا يقرأ إلا حين يجوع حتى يضمن لنفسه البقاء على قيد الحياة .

قرر الفراعنة أن يستميتوا فى العمل استعداداً للمرحلة الأخير بحيث إن نجحوا فى تحقيق رسالتهم كان بها ، وإن لم يقدر لهم النجاح فحسبهم شرف المحاولة المخلصة ، وليعودوا بعد ذلك إلى نومتهم الأبدية بأعين قريرة وضمائر مستريحة ، ويصبوا لعناتهم على أحفادهم الفاشلين أو ليدعوا لهم بالتوفيق من عند الاله .

***

انتشر الفراعنة السبعة فى أرض مصر تنفيذاً للبند الثانى من قراراتهم الأخيرة . خولت السلطات الكاملة لكل فرعون أن يلتقى بأى مواطن فارق الحياة خلال ثلاثين عاماً قبل منتصف عام ١٩٨٢ وأن يسأله المشورة فى كيفية استعدال الأهرامات بعد مناقشته فى أسباب انقلابها .

فى القاهرة التقى حور محب بفانوس افندى الغلبان الذى فارق الحياة فى نهاية ١٩٥٦ على أثر سكتة قلبية مفاجئة . داهمته السكتة لحظة تلقيه نبأ مقتل ابنه فى الحرب خلال عمليات انسحاب الجيش المصرى من سيناء .

لعن فانوس أفندى صنف « الفرنجة » في كل مكان على أرض الله لأنهم « تضامنوا مع اليهود فى الهجوم الثلاثى على مصر فتسببوا فى قتل إبنه ».قال له حور محب :

- لكن الأمريكان - وهم من الفرنجة - أنقذوكم من الهزيمة

- لم يكن ذلك لسواد أعيننا

- فماذا تقول عن الروس الذين هددوا المعتدين بضرب عواصمهم بالصواريخ ، وهم أيضاً من الفرنجة ؟

- لابد أنهم كانوا أصحاب مصلحة مماثلة يتنافسون عليها مع الأمريكان

ابتسم حور محب وقال لفانونس أفندى بتعاطف ماكر :

- يبدو أنك كنت مهتماً بالشئون السياسية .

- هذا صحيح .

- وهو يدل على استقرار مجالات رزقك .

- كان راتبى الشهرى يكفى لسد نفقات الأسرة .

- أظنه كان كبيراً .

- عشرون جنيهاً .

- كم كان سعر البيضة ؟

- خمسة مليمات .

قدم له حور محب سيجارة مصرية مرسوم عليها صورة الملكة كليوباترا . أشعلها له ثم سأله :

- هل سمعت بانقلاب الأهرامات ؟

- انه موضوع حديثنا الوحيد أثناء سهراتنا الليلية فى العالم السفلى .

- ما السبب الذى تعتقد أنه أدى إلى وقوع هذا الانقلاب ؟

قال فانوس افندى الغلبان بلا تردد :

- ارتفاع سعر البيضة إلى عشرين ضعفاً .

- أتعتقد أنه لو عاد سعر البيضة إلى خمسة مليمات ستعتدل الأهرامات ؟

- لا شك فى هذا .

- لكن تحقيق هذه الأمنية يحتاج إلى مضاعفة الإنتاج القومى عشرات المرات .

- ليس هذا من شأنى . كل ما كان علىّ من واجب أثناء حياتى هو تأدية عملى بإخلاص ، وهذا ما كنت أفعله .

سأله حور محب باهتمام بالغ :

- ترى لماذا لا يعمل الموظفون الأحفاد بنفس إخلاصك ؟

تردد فانوس أفندى طويلاً قبل الإجابة . يريد أن يقول للفرعون أن الموظفين مضربون عن العمل رغم حضورهم اليومى إلى مقر أعمالهم وتقاضيهم رواتبهم الشهرية وأن أبناء الطبقة المتوسطة من المتعلمين أصبحوا نفاية المجتمع ، يعيشون دون مستوى الكفاف .. هكذا سمع من زملائه الجدد بالعالم السفلى . وبعد طول تدبر وحسن انتقاء للعبارة أجاب فانوس :

- تعبير سلبى عن رفض الظلم ، وهو التعبير الوحيد الذى يتقنه الموظفون .

- ما معنى الظلم ؟

الظلم عندي أن يثرى الكبار بصنوفهم كافة ، المستغلون منهم والطفيليون الجهلاء ، وأن يثرى الصغار من الحرفيين بحيث تكاد تقترب أجورهم اليومية من أجورنا الشهرية نحن الموظفين التعساء من جامعيين وغير جامعيين .. ونبقى نحن لنتفرج على الذين هم فوق ونتحسر وعلى الذين هم تحت ونتحسر . ما أصعب أسئلتك أيها الفرعون ، لكنى سوف أعرف كيف أهرب منها .

- لست أعرف معناه المجرد على وجه الدقة ، فهذا من اختصاص الفلاسفة .

نفذ الفرعون بشفافيته المتحررة من الجسد إلى قلب فانوس فسأله معاتباً :

- وهل يستكثرون النعمة على الآخرين ؟

تحرر فانوس أفندى فجأة من تحفظه قائلاً بحماس :

- استغفر الله صاحب الرزق والنعمة ، ولكن لم لا يعم عليهم الخير أيضاً كما عم من فوقهم ومن تحتهم ؟

- وما لم يتحقق هذا ؟

قال فانوس بحسم وغضب :

- فليغرق الطوفان الجميع .

هزّ محب رأسه فى أسى وهو يقول :

- لهذا فهم يعطلون التليفونات ويقطعون النور والمياه ولا ينجزون أعمال المواطنين إلا بالرشوة و ...

قاطعه فانوس بنفس الحسم والغضب :

- لا تجهد نفسك بذكر المزيد من مظاهر الإضراب غير المرئى ، فكله صحيح .

بصوت ملؤه الألم والمرارة قال حور محب :

- إنها جريمة بشعة فى حق الأرض التى يعيشون عليها .

- لا تلمهم يا سيدى فربما فعلت - أنا - مثلهم لو عشت عصرهم .

- ولم لا تبحث عن عمل آخر بدلاً من المشاركة فى الجريمة ؟

- يبدو أن جلالتك نسيت أننى مصرى .

- كلا .. لم أنس إطلاقاً !

- فكيف لا تعرف أن الموظف المصرى يقدس كرسى الحكومة ويتشبث بتلابيبه - رغم كراهيته له - حتى يحال إلى التقاعد فيظل يبكيه حتى الموت ؟

- لعلك لم تسمع عن شركات الاستثمار الأجنبية التى تغرى الشباب الآن بآلاف الدولارات .

- سمعت ، لكنى لم أفهم شيئاً محدداً عن مسألة الانفتاح التى أدت إلى ذلك .

- هل أنت راض عن العصر الذى عشته ؟

- كلا .. أنا غير راض عنه .

- وهل أنت راض عن العصر الذى تلاه ؟

- أعتقد أنه لم يكن أفضل منه بكثير .

- فماذا عن العصر الحاضر الذى تسمع أخباره فى عالمك السفلى ؟

- أشك فى أنه سيكون أفضل مما مضى من عصور.

- هل لديك أفكار أخرى فيما يتعلق بمسألة الاستعدال ؟

- لقد قلت كل ما عندى .

- بالإنابة عن فراعنة مصر أرجو أن تقبل عزائى فى ابنك الشهيد .. وإلى اللقاء مرة أخرى .

***

تساءل حور محب :

« لماذا كتب الحزن على أرضنا بخط عربى عريض ؟ » .

- ٣٨ -

التقى خوفو بعامل لقى حتفه بين تروس آلته عام ١٩٦٧ . كانت الأنباء قد تضاربت حول سبب مصرعه . قال البعض ان الماكينة عتيقة من مخلفات القرن الماضى وكان ينبغى على كبير كبراء الصناعة فى ذلك الوقت أن يأمر بتخريدها وشراء آلة جديدة ، لكنه تذرع بنقص الإمكانات المادية وندرة العملة الصعبة . قال البعض الآخر ان مهندس الصيانة هو المسؤول عما حدث لأنه أهمل فى صيانة الآلة بسبب تخفيض بدل التفرغ الذى يتقاضاه بنسبة الربع بعد وقوع ما أسموه بالنكسة . قال آخرون ان العامل كان ثائراً فى صباح ذلك اليوم بسبب التبرع الذى فرض عليه

إجبارياً بخصم نصف يوم من راتبه لصالح الجيش المهزوم ، وذلك لإحساسه بأنه غير مسؤول عن الهزيمة .. هذا وقد أرجع أحد أصدقائه المقربين سبب ثورته إلى نزاع كان قد دب بينه وبين مديرة الإدارة الفنية التابع لها حين عاملته باستهتاو وهى ممسكة بإبرة التريكو بين يديها ، حيث تطور النزاع إلى سبها وسب نساء مصر العاملات بلا استثناء ، فوقعت عليه الجزاء بخصم يومين من راتبه . ابتسم خوفو وهو يسأله :

- يبدو أنك تكن عداوة شديدة للمرأة ؟

- ابتداء من أمى نفسها .

- لماذا ؟

- لأنها أنجبتنى .

- لكن المرأة مخلوق جميل .

- ومدمرة فى الوقت ذاته .

ضحك خوفو ضحكة استنكار واثقة ، فواصل العامل حديثه قائلاً :

- ألم تقرأ كتاب « المرأة التى حكمت مصر » عام النكسة ؟

- لم أقرأه للأسف .

- إذن فعد إلى تاريخ قادتنا العسكريين فى ذلك الوقت وستعلم أننى محق فى مشاعرى .

تذكر خوفو الملكة المختفية فقال بأسى شديد :

- لكن حتشبسوت حكمت مصر حكماً عادلاً مزدهراً .

- لم أعرف شيئاً عنها لانشغالى بالعمل الإضافى حتى أملأ بطون أطفالى .

- لماذا لم تفكر فى ترك القطاع العام والعمل بإحدى الشركات أو المصانع الخاصة ؟

- لأننى أفضل الفقر على أن يستغلنى آدمى مثلى .

- هل تعلم أن العامل الحرفى أصبح الآن أوفر كسباً من الموظف ؟

- انى سعيد للغاية بهذا الانقلاب ، وشامت بالموظفين المجففين الذين يتشدقون بشهاداتهم العلمية وهم أجهل منا بشئون الحياة .

- لكن منهم المفكرين والعلماء والفنانين والأدباء ، وهؤلاء جميعاً هو وقود حركتنا الحضارية .

- لست أصدق هذا الكلام ، فلا حضارة فى ظل إفلاس اقتصادى .

- كيف توصلت إلى هذه الفكرة الرائعة ؟

- قالها الدكتور يوسف فخر الدين موسى فى أحد مؤلفاته .

- ما دمت عاملاً مثقفاً ، فما رأيك فى مسألة انقلاب الأهرامات ؟

انفجر العامل فى نوبة متصلة من الضحك ، ولما استفسر منه خوفو عن سر ضحكه الشديد أجابه قائلاً :

- لماذا لا تأخذون رأى ضباط الجيش المنسحب ؟

- أنا أسألك أنت الرأى .

- وهل ستأخذ به ؟

- ولم لا ؟

- انى أشك في ذلك منذ مولدى وحتى مماتى .

- هذه مسألة أخرى .. ما رأيك بصراحة فيما حدث ؟

- ما حدث كان لابد أن يحدث .

- لماذا ؟

- تلك نتيجة طبيعية لتراكم أخطاء الماضى .

- وما السبيل إلى التصحيح من وجهة نظرك ؟

- أن يحكم البلاد فرعون ذو موقف واضح وهدف محدد يخدم قضية شعبه .

- مزيداً من التفسير .. أو التحديد .

- ليكن هدف الفرعون مثلاً « إنتشال البلاد من الفقر خلال فترة زمنية معينة » وهذا يكفيه مجداً لو تحقق .

- وكيف يتم ذلك ؟

أجاب العامل ساخراً :

- اسأل وقود حركتنا الحضارية فهم أولى باجابتك .

فوجىء خوفو بالعامل يتركه ويمشى الى الخلف متراجعاً فى ثبات شديد. بعد عدة خطوات تحول المشى الى هرولة، ثم الى عدو سريع. توقف على بعد محدد كما لو كان يقصده منذ بداية تراجعه، ثم فى قفزة واحدة مفاجئة عاد الى موقعه الأول أمام خوفو الذى سأله بدهشة:

- ما معنى هذا الذى فعلت؟

أجابه العامل بلهجة توحى بالعناد:

- انى أترك لعبقريتك استنباط هذا المعنى.

لاحظ خوفو أن العامل التزم الصمت بعد ذلك، رافضا مبادلته الحديث، فأعاده الى نومته الكبرى وانصرف شارداً.

***

هامت فى خياله أشباح آلاف العمال المصريين الذين حملوا أحجار هرمه عشرين عاما بلا كلل .. يغنون بسعادة ويتألمون بحب، حتى أنجزوا معجزة البشرية.

تساقطت الدموع من عينيه ألماً وحزناً على أحفاده حين علم أنهم أصبحوا يستوردون طعامهم من خارج مصر.

جففت الشمس دموعه فاختفى.

التقى أخناتون بأديب شاب استشهد فى حرب اكتوبر ١٩٧٣.

فوجىء بأنه عاجز عن الكلام. تبادل معه التفاهم بالاشارة حيث اتفقا على أن يكتب له الأديب الأبكم ما يريد قوله رداً على السؤال الفرعونى التقليدى حول مسألة الانقلاب. قدم له ورقة وقلماً وراح يتابع كتابته أولاً بأول.

***

"لن أكتب الا ما أشعر أنه يعبر عنى بصدق".

- وهذا ما أريده تماماً.

"لن يهمنى أن تعتبره خطبة حماسية أو انفعالات شبابية هوجاء".

- موافق.

"أيها الفرعون الكبير، لقد ثار عليك المصريون لاعتقادك بوحدانية الاله آتون والغائك الثورى الخلاق لإلههم القديم آمون. اتهموك بالتنكر لدينهم واعتناقك عقيدة التوحيد فحدث بينك وبينهم ما حدث. يحدث الآن يا سيدى شىء مشابه تماماً، فالدنيا تغيرت والعالم يعدو بسرعة جنونية نحو آفاق جديدة من التقدم والابتكار والابداع. العالم يتجدد كل ثانية . أتدرى لماذا انقلبت أهرامنا ؟ .. لأنهم حذفوا دور الشباب من حركة المجتمع وقنعوا باستيراد اللحوم المجمدة من نفايات أوربا".

توقف الشاب عن الكتابة ونظر الى الفرعون مستفسراً. قال أخناتون:

- عظيم ياحفيدى .. استمر.

"نحن الكتاب الشبان الذين نمثل نبض الشباب وفكره وأمله، ليس لنا

ذكر فى هذا المجتمع. انتاجنا لا ينشر. الكتاب الكبار المعدودون على أصابع اليد الواحدة ما زالوا مسيطرين على صفحات الجرائد والمجلات. يكررون أنفسهم فى اليوم مائة مرة . أفكارهم يبست وتعفنت وتحللت، وما زالوا يجترونها أمامنا بلا حياء. أصبح الناس يسخرون من أى شاب يتجه الى الأدب فيقولون عنه باشفاق مهين "لقد أدركته حرفة الأدب" أو لعلها لعنة الأدب. أصبح قبطان مراد عثمان مثلا أعلى. مكتوب على الأديب منا أن يعيش ويموت بائسا بينما ينعم الجهلاء واللصوص والمرتشون بالثراء الواسع. ينفقون أموالهم على النساء والحشيش وسهرات ملوخية وسمارة.

نحن نكتب لشعب معظمه لا يعرف القراءة والكتابة . كثيرون منا لجأوا إلى نشر إبداعهم فى المجلات العربية التى تسبنا ولكن تدفع لهم مكافآت مجزية تعينهم على مطالب الحياة اليومية القاسية".

ظهرت علامات التأثر الشديد على وجه أخناتون. أشعل سيجارة وأخذ يرقب معالم وجه الأديب الأبكم والتى كانت تنطق بالغضب والثورة.

"انقلبت الأهرام بفعل أحفادكم المعاصرين لأنهم تجاهلونا وأنكروا حقنا فى الوجود. نحن الذين نبشر بعالم جديد مختلف تماماً عن عالمهم المتعفن الذى ذبحوا فيه أشقاءنا فى حروب لا معنى لها ، وامتهنوا فيه كرامة آبائنا بأن أبعدوهم عن المساهمة فى صنع الحياة الحرة ، وأصابوهم بالجبن والنفاق.

كتبنا كثيراً حتى لا تنقلب الأهرامات لم يعرأحد ما كتبناه انقلبت الأهرام على رؤوسها أطلب منهم أيها الفرعون ان يسمحوا لنا بالكتابة والنشر فربما تعلموا منا شيئاً بنقد الموقف أطلب منهم أن يمحوا أمية هذا الشعب المسكين الذى لم يعد قادراً على شرا البلح أو المانجو المصرى بعد الغزو الانفتاحى للموز الاسرائيلى والتفاح الأمريكى والمياه الغازية الماسخه . لأنه حين يتعلم الشعب القراءه والكتابه فسوف يتعلم مقاطعة لصوص الانفتاح وبضاعتهم الفاسده

نحن الكتاب الشبان المنتمين بدمائنا ووجداننا الى ترسنا المصريه حروفنا تعبر عن مصريتنا وبدونها ننبعثر الشباب بين التعصب والهوس والالحاد والتهافت على المال بعيداً عن أرض الوطن بأرخص الأثمان

أيها الفرعون لقد ساهمت باستشهادى فى اثراء الدول النفطية "الشقيقة" فراحت تكدس أموالها فى بنوك اوربا وأمريكا وتكيل لنا من التهم الزائفة ما تتقزز منه النفس مراره واشمئزازاً تسحر شبابنا فى خدمتهم وتعليمهم وتربيتهم بينما يصفنا شعراؤهم بشعب الفول والطعمية ويسبون زعماءنا بأبشع السباب ثم نعود ونفتح لهم صدورنا وقلوبنا وندفع لهم من دماء أبنائنا »

لم يفكر أخناتون فى سؤال الشاب عن سبب حكمه لكنه سأله بحنان

كيف استشهدت أيها الحفيد الطيب؟

عاد الشاب الى الورقة والقلم

"قتلنى عجوز اسرائيلى فى عمر أبى كان يمكننى المبادره بالقضاء على حياته لكننى لم أعرف حتى هذه اللحظه لماذا ترددت لماذا تلكأت

لماذا تراجعت؟ . لعله أجلى قد حان فى تلك اللحظة . كنت أتمنى لو عشت لسنوات أخرى أكتب فيها لاخوانى الشباب راجياً ألا يهاجموا حاكماً رحل ما لم يستطيعوا مهاجمته وهو على مقعد الفرعون . انقلبت الأهرام يا فرعون مصر . أقول لهم لا تهابوا الموت طمعاً فى حياة حقيرة تعيشون فيها على فتات الطعام وتتعثرون فى طريق الذلة والمسكنة والخضوع . انقلبت الأهرامات يا فرعون مصر ، وليس عندى كلام أقوله بعد ذلك".

رمقة أخناتون باشفاق وقال لنفسه بحسرة مكثفة بعد أن وضع الورق فى جيبه،

"لقد كانت رسالتى فى الحياة أن يعم السلام الأرض" .. ثم قرر أن يذهب بنفسه الى القصر الكبير فيصب غضبه وانتقامه على جسد كبير كبراء الثقافة.

***

متجهاً الى القصر الكبير ، يغمره شعور بالأسى .. وماذا يجدى الرثاء لحال الكاتب الشاب الذى أمضى حياته ضحية وهم كبير؟ .. أما كان ينبغى أن يؤكد له أن دور الأدب المكتوب قد انتهى ، وربما الى غير رجعة؟. الويل لك يا كبير الكبراء .

- ٤٠ -

التقى منقرع بطفل صغير يبكى بكاء متصلا. نظر الى دموعه الشفافة فتذكر ما قيل له عن قول المسيح اذ على البشر كى يدخلوا ملكوت السماء أن يصيروا كالأطفال .

سأله بحنان:

- لماذا تبكى يا صغيرى؟

أجاب الطفل ببراءة فائقة وبلاغة مذهلة.

- أبكى سوء حظى.

- لماذا؟

- لأنى ولدت فى مصر.

- وأين كنت تتمنى أن تولد؟

- فى أى بلد من بلاد العالم المتقدم.

- وكيف عرفت ذلك؟

- رأيت فى نومتى حلماً جميلا أستطيع أن أرويه لك بكامله.

- فى أى البلاد رأيت هذا الحلم ؟

- لست أعرف ، لكنه بالتأكيد يبعد عن مصر كثيراً ، فالثلوج كانت تغطى أشجاره .

- رائع .. أرو لى هذا الحلم الجميل .

اتخذ الطفل مجلسا مريحا . تنهد كما يفعل الكبار .

راح يروى حلمه بسعادة تشوبها مرارة الشعور بأنها مستحيلة . قال "رأيت نفسى فى شارع جميل . أركب دراجة صغيرة حددوا لها مسارا خاصا بعيدا عن العربات (رفض والدى أن يشترى لى دراجة فى مصر قائلا أنهم سيدوسوننى بعرباتهم الهوجاء) .. أنطلق فى طريقى أصفر وأغنى وأتوقف عند اشارات المرور . أرى العربات تتوقف حتى يعبر أصدقائى مشيعين بابتسامات الكبار وتلويحهم بأيديهم من نوافذ العربات أتوقف أمام محلات عديدة ، أشترى منها لعب الأطفال الملونة .. (اشترى لى أبى دبابة اتوماتيكية بعد نجاحى فى الامتحان حطمتها فى نفس اليوم فضربتنى امى وحبستنى فى البيت) .. أذهب الى النادى ومعى كتاب به صور ملونة أقرأ فيه وأستمع الى الموسيقا وأتفرج على الحدائق والطيور وأجرى مع الاطفال ونضحك حتى تدمع عيوننا .. (يمنعنى أبى من مخالطة الصبية قائلا انهم أشرار ، فابقى بالمنزل أتشاجر مع أشقائى وشقيقاتى) .. الطعام وفير ومتنوع والفاكهة اللذيذة الطعم تملأ المتاجر ليشتريها الجميع . كان أبى فى الحلم غير أبى فى الحياة ، رقيقاً وديعا لديه متسع من الوقت للمتعة والتسلية والاستفسار عن شئونى (يعود أبى الحقيقى من وظيفته ليعمل أجيرا

عند أصحاب عربات الأجرة. فى المساء يسب الحياة ويتعجل الموت . أحيانا كثيرة لا أراه لعدة ايام متتالية . أما أمى فتعود من عملها مرهقة . تضربنى وتضرب اخوتى حتى ننام مبكرين) .. مدرستى جميلة واسعة تقيم لنا الحفلات . فصلى منسق بديع . المقاعد مستوية ناعمة . الأستاذ يشرح لنا الدرس على السبورة أحيانا وباستخدام الأفلام الملونة أحيانا أخرى كما يصحبنا الى موضوعات الدرس على الطبيعة . (ضربنى المدرس على رأسى بعصاه الغليظة لان أبى رفض أن أتلقى درسا خصوصيا بمنزله . مقعدى محطم ترتع فيه الحشرات وعددنا بالفصل خمسون تلميذا) وبعد ذلك ..

قاطعه منقرع قائلا بابتسامة الأب المجرب :

- كفاك حلما يا صغيرى

- كيف لا احلم يا مولاى والحلم يحررنى من سجن الحرمان؟

- انى أتعجب لقدرتك على صياغة هذه الكلمات

- لا مبرر لتعجبك ما دمت حفيدك

- بارك الرب فيك يا عزيزى .. هل سمعت عن انقلاب الأهرامات؟

- وعرفت السبب أيضا

- كم أنا فخور بنبوغك .. ما السبب يا صغيرى؟

- لأننا معشر الأطفال لا نلقى الحب والرعاية والاهتمام فى حين أننا الأمل الوحيد فى المستقبل

- ألا ترى هناك أملاً فى أجيال الشباب المعاصر؟

- ولا فى جيل الآباء المعاصرين

- لماذا؟

- لا يمكننى أن أفسر ما تعجز عنه حيلتى .. انه مجرد احساس طفل .

عاد منقرع الى مقره وقد تأثر الى حد كبير بوجهة نظر الطفل الباكى . ظهر أمامه رعمسيس الثانى الذى أبدى تأييدا ملحوظا لوجهة نظر الطفل ، ثم حدثه عن استعداده للقيام بجولة فى عالم الأموات بين العمال من مختلف الحرف.

انسحب منقرع بذاكرته الغائصة فى الدهر الى رحم أمه حيث لا تبحث السعادة عن تفسير .. ثم اقترب من الزمان بمسافة قدرها بضعة آلاف من السنوات حيث يرقد فى تابوته بالهرم الأصغر ، وهنا تتحد السعادة بالشقاء فتتلاشى الأزمنة تهيبا من جلال الخلود . أما الميلاد والموت والبعث فتلك أمور مقدسة لا يدرك كنهها سوى طفل صغير .

- ٤١ -

اتجه رعمسيس الى المقابر متحررا من نزعاته العسكرية وسلوكياته

الجافة الصارمة . استدعى سباكا ونجارا وبناءا ونقاشا وراح يتأمل وجوهم . وجدها متشابهة . سمراء ذات تجاعيد متداخلة . الشعر أكرت بعضه مصبوغ باللون البنى الغليظ . معظمهم يرتدون أغطية رأس قطنية لتضغط على شعرهم الطويل . قمصانهم بلا جيوب . يضعون علب سجائرهم - وكلها مستوردة - فى جواربهم وأمشاط الكبريت فى بطون احذيتهم . أحيانا يمسكون بالسجائر والكبريت فى أيديهم على الدوام . مخارج حروفهم غليظة ومنافية للذوق السليم يرددون بمحبة شديدة أغانى محمد ملوخية . جيوبهم ممتلئة بأوراق النقد . مهاراتهم الفنية ضئيلة للغاية بالقياس الى زملائهم الذين هاجروا الى البلاد العربية . يحتقرون الموظفين ومنهم من يشفق عليهم من معاناة الحياة اليومية التى تسوقهم اليها رواتبهم الشهرية الهزيلة.

فوجىء رعمسيس بأحدهم يحضر جوزة ويعمرها بالطباق مضيفا اليها قطعا من الحشيش . أخذوا يتبادولون سحب الأنفاس منها بطريقة منفرة، يتبادلون معها السباب متبارين فى فنون البذاءة غير مبالين بحضور الفرعون . قال أحدهم ان المزاج الرائق هو اساس السعادة فى الحياة . قال آخر إنه لا يستطيع أن يحتفظ بفائض من ماله ليوم واحد ، وانما يفضل إنفاقه فى مجالس الأنس ليقينه من اتيان الموت فى لحظة مجهولة . قال له أحدهم :

- نحن لا نقرأ ولا نكتب لكننا نكسب فى اليوم ما يكسبه خريج الجامعة فى شهر

ذهل رعمسيس لسماعه هذا القول فأراد التأكد من صحته . اتصل تلفونيا بكبير كبراء التعليم الذى قال له :

- هذا صحيح يا جلالة الفرعون

- وهــل هذا يعقل أيهــا الكبير ؟ .. السباكون فوق والمتعلمون تحت ؟؟؟

- هذا هو الأمر الواقع الحالى ، والذى لا حيلة لنا أمام استفحاله

- فكيف يمكننا تغييره؟

- لو نجحنا فى تغير وضع الأهرامات

- وكيف يمكننا ذلك؟

- لو قلبنا الأمر رأسا على عقب

- وكيف نقلبه؟

- بأن نعدل الأهرامات

أغلق رعمسيس سماعة التلفون فى وجه كبير كبراء التعليم بغضب شديد وقرر أن يستدعيه فيما بعد ليستضيفه بالقصر مع كبير كبراء الثقافة .

عاد الى حديثه مع الحرفيين فتوجه اليهم بسؤاله التقليدى . كانت اجاباتهم على النحو التالى

السباك - لست أفهم الا فى استعدال المراحيض

النجار - عندما تنتهى السوق السوداء لتجارة الخشب ستعود الأهرامات الى قواعدها

البناء - لن تعتدل الأهرامات الا عندما يجد سكان المقابر منازل تؤويهم .

النقاش - لا أستطيع اجابتك قبل ان افيق من "سطلتى" .

عاودته نزعته العسكرية القاسية بعد سماع آرائهم فاحتد واتهمهم بالجهل والغباء ثم تركهم وانصرف متجها الى كبير كبراء التعليم المعاصر . التقى به منقرع فى الطريق فذكره بأن طبيعة مهمتهم الحالية تنحصر فى استدعاء الموتى وليس فى مقابلة الأحياء . اضطر رعمسيس الى استدعاء كبير كبراء التعليم الذى رحل عن العالم منذ حوالى عشرين عاما . أجرى معه اتصالا هوائيا بكبير كبراء التعليم المعاصر وطلب منه أن يستمع معه الى حديث زميله الراحل على نفس الخط التلفونى . فى نهاية الحديث سأله رعمسيس السؤال التلقيدى فقال الكبير الراحل :

- لابد أن تخفضوا عدد أطفالكم الى الثلث حتى يمكن أن توزعوا عليهم الحلوى وهم جلوس فى فصول تليق بالآدميين الصغار .

- ٤٣ -

استدعى خفرع - خارجا عن قاعدة الثلاثين عاما - الاقتصادى الكبير "طلعت حرب" وبعث ببعض من جنود رعمسيس لاستحضار كبير كبراء الاقتصاد المعاصر . امرهم أن يضربوه فى الطريق ولكن برفق

بحيث لا يحدثون به عاهة . فسر لهم أمره بأن هذا الرجل كذاب كبير ضلل شعبه ارضاء للحاكم ونفاقا له بأن قدم بيانات رقمية زائفة تؤكد ازدهار الاقتصاد فى عهد الحفيد الثانى.

جلس خفرع بين طلعت حرب والكبير الكذاب وتركهما يتحاوران . تبين له بعد وقت قليل ان الكبير لا يعترف بخبرة طلعت حرب بل يسفه من آرائه ، فذهب يجرى اتصالا بالقصر ليبلغ الفرعون النوبتجى بالاستعداد لاستقبال كبير كبراء الاقتصاد بناء على طلبه وكبير كبراء التعليم بناء على طلب رعمسيس . ولما عاد إلى مجلسه وجدهما مشتبكين فى جدال عنيف انتهى بأن طرح طلعت حرب الرجل الكبير أرضا وأشبعه ضربا وركلا ثم طلب من خفرع اعادته فورا الى قبره . استمهله خفرع قليلا ليسأله السؤال التقليدى فأجابه:

- سيدى الفرعون .. خمسون مليونا من البشر ، وشريط زراعى ضئيل ، وديون متراكمة ، وعمل قليل ، وكلام كثير ، و .. كان الله فى عون حفيدكم الثالث ومن سيأتون من بعده .

- لكن ما رأيك ؟

كرر جملته الأخيرة بآلية :

- كان الله فى عون حفيدكم الثالث . ومن سيأتون من بعده .

استحضر امنمحات سيدة عاملة انتحرت فى الستينات . قالت ان زوجها قتل فى حرب اليمن وترك لها ستة أبناء ذاقت الويل لإطعامهم . عملت كخادمة فى البيوت والمحلات التجارية وتعرضت لشتى صنوف الاهانة . حتى جسدها كادت أن تضحى به يوما لثرى عربى وهى غائبة عن وعيها من شدة الجوع والانهاك البدنى . فى ذلك اليوم لم تجد بديلا عن الانتحار كى تتحرر من عذاباتها . قال لها امنمحات بإجلال شديد :

- انى أقدس فضيلتك

- لكنى مت كافرة

- لقد باع غيرك من النساء أجسادهن للفارسى واليونانى والرومانى لكنك رفضت بيع جسدك

- انى أشعر ببشاعة جريمتى فى حق ابنائى التعساء

- ليس الذنب ذنبك يا سيدتى الجليلة ، انما أنت ضحية لأشياء عديدة لا تدركينها

- لولا تلك الحرب اللعينة - عديمة الجدوى - لما مات زوجى وتعذبت

وانتحرت

- سوف يأتى يوم يحكمكم فيه رجل سلام عاقل

- ومتى يأتى هذا اليوم

- بعد أن تستقر الأهرامات على قواعدها من جديد

- اذن فلن يأتى هذا الرجل أبدا !

- كيف لك أن تجزمى بذلك ؟

- لأن الأهرام لن تستقر أبدا على قواعدها ما لم يعد زوجى وأبنائى

- انك تطالبين بالمستحيل

- أنى أطالب بأن تحكمنا امرأة ، فربما نجحت فى تحقيق هذا المستحيل

- سبق أن حكمتكم نساء فى العلن ، وأخريات من وراء ستار ، لكنهن فعلن أسوأ مما فعل الرجال

- لاشك أنك ستغلبنى بحججك لأنى امرأة جاهلة ، فاذا أردت أن تقنعنى بشىء فابعث السيدة الراقدة بجوارى لأنها جديرة بمحاورتك

- لا مانع عندى من ذلك ، لكن لابد من معرفة بعض المعلومات عنها قبل استدعائها

- اسمها "مطيعة" كانت تعمل موديلا للفنانين . نهمة لقراءة الأدب . تجيد الرسم والنحت . تعشق الموسيقا والفنون .

قبل أن يجرى امنمحات اتصالاته بالعالم السفلى ليستحضر مطيعة ، اتصل بزميله الفرعون النوبتجى بالقصر الكبير طالبا منه الاستعداد

لاستقبال كبير كبراء الشعب ، والذى كان يعرف فى زمن سابق بكبير كبراء الأمة .

- ٤٤ -

قالت مطيعة ان المرأة المصرية مصابة بداء "الماسوشيزم" اصابة حادة قاتلة ، ليس من السهل التخلص من آثارها ، ولهذا سيظل الرجل المصرى يقودها بغباء الى الحروب التى لا معنى لها والتى لن تؤدى الا الى فقد أبنائها حيث لا تملك وقتها سوى العويل والصراخ . قالت ان بعض النساء المحجبات اللاتى يخفين وجوههن بأكملها اما يخفين دمامة هذه الوجوه وقبحها واما يفعلن ذلك تنفيذا لأوامر الرجل . قالت انها لا تقصد التعميم فى اية حالة من الأحوال لأن هناك ندرة من النساء العاقلات اللاتى تتحجبن عن اقتناع شخصى .

قال امنمحات وقد استبدت به الدهشة :

- انى مستمع اليك حتى النهاية ، لكنى لا أستطيع الربط بين موضوعاتك المتفرقة التى لم أسألك الحديث عنها .

- معك حق ، سيظل حديثى مفتقدا المنهج طالما احتفظت بكامل

وعيى،

ازداد تعجب امنمحات من غموض المرأة الفاتنة الجالسة أمامه بثقة متناهية ، واضعة ساقا فوق ساق ، مشعلة سيجارة من سيجارة ، لكنه لاحظ أنها تخفى بداخلها توترا نفسيا بالغ الحدة .. قال لها :

- ماذا تريدين أن اقدمه لك كى تتحدثى بمنطق مفهوم

- زجاجة من الويسكى

ضرب امنمحات قدمه اليسرى بقوة على الأرض فانفتحت تحتها طاقة صغيرة برزت منها زجاجة مثلجة من الويسكى فتحت من تلقاء بمجرد أن تناولها بيده . قدمها لمطيعة . راحت تعب منها فى جوفها بشراهة كما لو كانت تشرب الماء فى وقت قيظ شديد . قال امنمحات كالمذهول :

- انى مستمع اليك ، راجيا الا يبتعد محور حديثك كثيرا عن صميم موضوع انقلاب الأهرامات .

بدأت أساير تنفرج وأخذت بوادر التوتر تزول عنها تدريجيا ، ثم قالت وهى تضحك بعذوبة رائعة لم يتحرك لها وجدان امنمحات

- اننى فى غاية الدهشة لأمركم أيها الفراعنة المصريون . أى أهرامات تلك التى تريدون استعدالها والعالم كله منقلب على رأسه حينا وعلى بعضه حينا آخر ؟

تناولت جرعة من الزجاجة بهدوء حقيقى يخلو من الافتعال وواصلت حديثها بألفاظ أكثر استقرارا .

- ليكن فى معلومك أيها الفرعون أننى لم أعد أعبأ بشيىء فى هذه الحياة على الاطلاق . ان المسافة بين مولدى ومماتى مسافة وهمية تخلو من المعنى سواء تعريت من ملابسى أو احتل الانجليز جزر الفوكلاند أو تكفلت اسرائيل وامريكا بالقضاء على شعب فلسطين ، أو انقلبت الأهرامات أو اعتدلت ، أو عشت أو متّ ، أو رسمت لوحات سيريالية لا يفهمها قومى ولا يشعرون لرؤيتها بأى شىء ، أو باعت جارتى الميتة جسدها لرجل البترول ، أو بعت أنا جسد امرأة غيرى لأجنبى ، أو باع رجل أجسادنا المصرى ، أو طارت رؤوس أبنائنا فى الحرب ، أو القوا بهم فى السجون والمعتقلات ، أو عم السلام والحب العالم المنحط ، أو بعث رسول جديد يضيف معنى للحياة البشرية أو ...

اشار اليها امنمحات بكفه علامة الأمر بالسكوت . قال لها بسخرية لكن فى حنان :

- ما كنت أظن أن الخمر تمدك بكل هذا المنطق وتمنهج حديثك بهذه الكيفية الرائعة .

لم تفطن مطيعة الى سخرية امنمحات ، بل اعتقدت أنه معجب بحديثها فواصلت الكلام :

- إن عذابى الأكبر يكمن برغبتى الشديدة فى الايمان وعجزى فى الوقت ذاته عن تحقيقها ، وهأنا أفعل كل ما يحلو لى وكل ما يفترض أن يحقق لى أسباب السعادة ، لكن نفسى مظلمة وروحى ثقيلة متهابطة لا أستطيع حملها ، وما دام الأمر كذلك فستظل أهراماتكم مقلوبة ، وأرجو أن تعتبر حديثى اليك قد انتهى لأننى متعبة متعبة متعبة .

فـــوجىء أمنمحات بمطيعة تتأهب للوقوف فأخبرها أنها لا تستطيع

الانصراف دون موافقته . قالت له بتوسل من القلب :

- أرجوك أن تعيدنى الى مقبرتى فقد سئمت الحياة مثلما سئمت الموت

أجابها امنمحات الى طلبها ، لكنه استحضر أرملة قتيل اليمن مرة أخرى وسألها :

- هل استمعت الى ما قالته مطيعة ؟

- انى لم أفهم شيئا على الاطلاق

- وماذا تريدين الآن قبل أن نفترق ؟

- لست أريد شيئا

- أقصد هل ترغبين فى العودة الى قبرك أم تودين معايشة هذا العصر ؟

- لم أعد أدرى

- وأولادك وزوجك ؟

- كنت أود رؤيتهم قبل الاستماع الى حديث مطيعة الذى لم أفهمه ، أما الآن فاعتقد أنه من الأفضل اعادتى الى نومتى الأخيرة

- والأهرامات المقلوبة ؟

- أرجوك اعادتى الى مقبرتى

بعد هذين اللقائين أصبح امنمحات واثقا تمام الثقة من سلامة قراره باستضافة كبير كبراء الشعب . استحضره وارسل به مع مندوب الى

القصر الكبير .

- ٤٥ -

سأل امنمحات نفسه والحيرة تكاد تدير رأسه :

- هل كان ابتكارنا لنظام الدولة بمثابة كارثة على العالم ؟

- ٤٦ -

كان حور محب هو نوبتجى القصر حين استقبل كبير كبراء الشعب بناء على طلب امنمحات . جرت مراسم الاستقبال فى حديقة القصر بعيدا عن ابوابه العالية . قال له حور محب بلهجة تهكمية :

- ان شعبك الذى تفترض انك تمثله أصبح يفضل الموت على الحياة فى عصرك

- ما معنى هذا يا جلالة الفرعون ؟

- معناه أنك لا تمثله حقيقة لأنك زائف وصلت الى مقعدك بالغش والتزوير

- هناك حكومة ولها رئيس ، يمكن الرجوع اليهما للتأكد من شرعية جلوسى على مقعد الشعب

- لا شأن لنا بالحكومة أو الحاكم فهذا ليس من اختصاصنا ، كما اننا نفترض أنك المسئول الأول عن اختيار الحكومة والحاكم

ابتسم الكبير ابتسامة صفراء كشفت عن تمتعه بقدر وفير من النفاق وقال :

- سيدى .. تلك مسائل معقدة يحسن عدم الخوض فيها بلا مبرر

صرخ حور محب فى وجهه بكراهية شديدة :

- أيها الغبى ، ألا تجد مبررا للخوض فى تلك المسائل وأنت المسئول الأول عن انقلاب الأهرام ؟؟

- انه لإجحاف شديد يا سيدى أن تحملنى وحدى هذه المسئولية

- بل ان الاجحاف الأكبر لشعبك أن تتجاهله وتوافق حكوماتك المتعاقبة على كل قرار تتخذه فى السلم أو الحرب دون مناقشة لمجرد البقاء على مقعدك

- لا تنس يا سيدى أن نصف زملائى فقط من الصفوة والبقية من

- أنت تعلم أنك كاذب ، لأن التمثيل زائف من أساسه

- وأين الصفوة اذن ؟

- انهم خارج اللعبة تماما ، وهكذا انقلبت الأهرام لجهلكم من ناحية ولابتعادهم عنكم من ناحية أخرى .

فى تلك اللحظة وصل رسول فرعونى. انتحى بحور محب جانبا . أبلغه رسالة فرعونية تنص على عدم جواز استضافة كبير كبراء الأمة لأنه يعتبر سياسيا .

وكان الفراعنة قد اتفقوا من قبل على عدم استضافة رجال السياسة بالقصر والاكتفاء باستضافة من يصنعونهم ويصنعون لهم سياساتهم ولهذا فقد اقتصرت الاستضافة على رجال الفكر والفن والتعليم والاقتصاد والاعلام .

قال له حور محب بغيظ شديد :

- من حسن حظك انك أفلت من قبضتى . أخرج فورا من هذه الحديقة قبل أن أقتلك ، ولكن خذها نصيحة منى : اهتم بمصالح شعبك فقد ساءت حالته وتفشت بينه ظواهر بشعة لم نعرفها من قبل ، أبرزها اضرابه المستتر عن العمل ، وثق أنك لن تفلت من العقاب لو لم تنجح فى استعدال الأهرامات المقلوبة وإعادتها الى قواعدها الأصلية .

اطمأن نزلاء القصر الى اختفاء حتشبسوت بصفة قاطعة فبدأوا يتخلون عن احتراسهم وتحفظهم . غمرهم شعور متوحد بالراحة بعد أن انزاح عن كاهلهم كابوس سجانتهم الجميلة القاسية التى كانوا يحسبون لوجودها ألف حساب . انطلقت عوالمهم الداخلية بغير حدود فى فضاء القصر الرهيب . تجمعوا بعد عشاء فى غفلة من نوبتجى القصر وراحوا يصبون لعناتهم على الفراعنة الذين أحضروهم الى هذا المكان . اجتمعوا على أساس من الاحساس المشترك بالخوف الشديد من احتمال أن ينجح الفراعنة فى استعدال الاهرامات فيتهدد مصيرهم بالفناء . لا حول لهم ولا قوة أمام احتجازهم بالقصر وعجزهم عن مقاومة الاستعدال . لكن مشاعر خفية متباينة كانت تجوس فى نفوسهم . تؤكد لكل منهم على حدة تميزه على غيره من النزلاء ، وتهيىء له اعتقادا بأولوية استحقاقه للنجاة والعودة الى ذويه . انفلتت هذه المشاعر فى غمرة احساسهم العام بالورطة التى لا مخرج منها . حينئذ قال كبير كبراء الثقافة :

- سوف أعرف كيف أؤدب هؤلاء الملاعين بعد خروجى من قصرهم . كيف يستضيفوننى وأنا أبرز عضو بحزب الباب العالى ؟ .. أنا الذى

تبرعت لكبير الحزب بمليونين من الجنيهات ثمناً لانضمامى لحزبه وتعيينى كبيراً لكبراء الثقافة. أنا الذى أهملت مشروعاتى التجارية الكبرى حتى أتفرغ لخدمة هذا الشعب الفقير المتخلف ؟ .

وحيث لا رقيب ولا حسيب للمشاعر المنفلتة قال محمد ملوخية :

- يا لنكران الجميل ..أنا الذى أدخلت السعادة على قلوب العمال والفلاحين . أنا الذى يتغنى النجارون والبناءون والنقاشون بأغنياتى ليل نهار . أنا ملك الغناء الشعبى . يجلجل صوتى فى البارات والتاكسيات وشاليهات المعمورة والهرم . أحث على البساطة بقولى "تيك ات ايزى" وأدعو لتنوع الحياة بقولى "حبة فوق وحبة تحت" . سوف أسخر فى أغنياتى من غبائهم بعد الخروج . سوف أجعل الشعب يضحك منهم حتى تدمع عيونه . يريدون استعدال الأهرامات . ؟ . يظنون أنها مقلوبة ؟ .. ها ها هع .

ويقول قبطان مراد عثمان بثقة لا حد لها :

- بأموالى سأشترى كل الفراعنة وأخرج من هنا . انى أعدكم بتحويل هذا القصر الى معتقل أضع فيه كل من يحاول استعدال الأهرامات مرة ثانية ، وسوف أسقط بنفوذى أى تغيير يفكرون فى احداثه .

اقترح الصحافى عليهم فكرة الاتصال بوكالة أنباء أجنبية للاستنجاد بقوى الحرية والعدالة فى العالم المتحضر حتى يطلقوا سراحهم . لم يأبه أحد باقتراحه لثقتهم الكاملة فى انعزالهم عن العالم . وتساءل كبير كبراء التعليم بدهاء :

- لماذا لا نحضر روح الحفيد الثانى الذى صنعنا ، فنسأله المشورة

الاؤلات من القصر ؟

انطلقت ضحكة صاخبة من سمارة . قامت تنشد موالها الشهير "طلعت فوق السطوح أنادى على طيرى" .

توالت صيحات الاستحسان فواصلت سمارة غناءها بحماس شديد . تحول المجلس الى سهرة ليلية صاخبة . ظهر الفرعون النوبتجى فألقى عليهم نظرة محايدة ولم يبد اعتراضاً على مرحهم ثم انصرف فى هدوء . أحضر ملوخية عوده وأخذ يغنى . إلتف النزلاء حول سمارة وهى ترقص وتغنى معه وهم يصفقون لهما . انبرى كبير كبراء الاقتصاد قائلاً :

– يا اخوانى ليس هذا وقت الرقص والغناء . ينبغى أن نفكر فى حل لمأساتنا .

قاطعوه جميعاً فى صوت واحد وهم يغنون بايقاع ثابت على نغمات العود :

"اسكت يا كذاب . أسكت يا كذاب .. أسكت يا كذاب" !!

أخيراً خرج حليم حتحوت من صمته الطويل .. قال كمن يحدث نفسه
.- ليتنى أعرف ماذا يدور فى ذهن الحفيد الثالث بشأنكم أيها التعساء .

- ٤٨ -

فوجىء حليم حتحوت قبل الجميع بخروج حتشبسوت من غرفتها فى رداء نوم وقور . قالت لهم محذرة :

- لا فائدة من كل ما قلتموه . نحن نعرف نواياكم تماماً . الحراسة من حولكم مكثفة وغير مرئية . نحن نسجل عليكم كل ما تنوونه فى سرائركم . هنا سيبقى مصيركم لحين أن نبتَ فى أمركم .

- ٤٩ -

لا وهم ولا حقيقة عند حليم حتحوت ، فالاثنان من صنعه . حينئذ يتساوى عنده أن يكون ظهور حتشبسوت حقيقة مرئية أو خيالاً من

صنعه وابداعه . تجلى له فى تلك اللحظة ما سبق أن خفى عليه من مشاعر غامضة مفعمة بلذة حسية مسحورة كانت تنتابه من حين لآخر منذ أن اعتفت حتشبسوت .. ولم يتوصل حليم الى اجابة قاطعة عن تساؤله المحير :

« هل كانت الملكة قابعة فى روحه أم أنها احتوته بجلالتها روحاً وجسداً ؟ ».

- ٥٠ -

توجه رعمسيس الثانى الى تمثاله العملاق المنتصب بميدان محطة القاهرة . جلس الى جواره يتأمل جماهير أحفاده الرائحة والغادية من حوله . زحام رهيب . سيل هائل من العربات الجامحة . آلات التنبيه تصرخ بجنون . عادم العربات الخانق والأتربة السوداء والحرارة اللافحة . الأحفاد يهرولون يميناً ويساراً . يعبرون الطرقات فى رعب . كرنفال من الملابس الدينية والريفية والقبلية . عربات أخرى تجرها الأحصنة والحمير . قرويات يحملن السلال ويجرجرن جلاليبهن الطويلة على الأرض .

نظر رعمسيس بزهو الى تمثاله . الناس خائفون يارعمسيس . لا

يبتسمون يا رعمسيس . الناس كثيرون . ضاق بهم واديهم الجميل فراحوا يتصارعون على لقمة الخبز فى عصر الانضغاظ . سيأتى يوم يا رعمسيس تكتظ فيه أرضك بأحفادك ، وتنحشر أجسادهم فى الطريق وتتلاصق بحيث لا يستطيع أحد أن يتحرك خطوة واحدة ، وحينئذ يموتون وافقين . لماذا لا تطلب منهم أن يذهبوا معك الى الجيزة ليجربوا بأنفسهم أن يعدلوا أهرامهم ؟ . جيشك العظيم عجز عن ذلك . فقد الماضى فعله وآن أوان الفعل الحاضر . تلك هى الحقيقة . لن يستعدل الأهرامات سوى من قلبوها .

أفاق رعمسيس من شروده ليجد حسناء فارعة تقف أمامه . حتشبسوت ؟ ! .. أما زلت على قيد الحياة ؟ .. ألم يختطفك أحفادنا الأشرار ؟ .. يا لسعادتى الأبدية بلقائك يا رفيقة الماضى الذى لن يعود . انى ما زلت أذكر اللية التى انتهت فيها حياتى مصاباً بتصلب الشرايين . فى تلك الليلة رأيت المجد مجسداً وهو يفارقنى فكان عزائى أنه متجه الى من يأتى بعدى من فراعنة يحكمون مصر . لم يخطر ببالى أبداً أنه سيغيب عن وادى النيل الذى تشبث أجدادى بأرضه منذ عصر الجليد . حتشبسوت يا رفيقة الماضى العظيم .. يدك فى يدى نبحث معاً عن الغائب ، نعيده الى أرضنا من جديد .

بتأثر واضح قالت حتشبسوت :

- انى أشاطرك الأحلام ، لكنى اهتديت الى الوسيلة .

قفز رعمسيس وافقاً وقد استبدت به الفرحة :

- انها حقاً لمعجزة !

- وفيها يكمن سر اختفائى .

بشوق شديد ورغبة جامحة فى المعرفة سألها رعمسيس :

- بحق الاله أين كنت وما هى الوسيلة ؟

- فليحضرنا أخناتون أولاً قبل أن أتكلم ؟

- ٥١ -

أمام أخناتون أقرت حتشبسوت أنها كانت مختفية بارادتها فى غرفة حليم حتحوت بالقصر دون علمه . كانت تراقب واقعه وتعـايش أحـلامه .أحياناً تظهر وأحياناً تختفى .عاشت معه لحظات الابداع المقدسة . رأته يضحك يبكى يصرخ يصمت . تحاورت معه . أحبته حباً جنونياً . ودت لو أمضت معه بقية حياتها المقررة قبل العودة الى العالم السفلى . أيقنت أن استعدال الأهرامات لن يكون الا على يديه . صاحت فجأة :

- فلنخرج حليم حتحوت من القصر ..

ما أن مضت لحظات الدهشة والاستفسار حتى ظهر حور محب قائلاً

- ولنستحضر يوسف فخر الدين موسى وعلى عزيز سهدوم .

أضاف أخناتون :

- ولنحضر رجال مجمع الأديان ومعهم أم كلثوم .

ظهر أمنمحات وقال بلهجة حكيم كل الأزمنة :

- لن يستعدل الأهرامات سوى من قلبوها .

صاح رعمسيس بفرحة طاغية :

- ها هو حلمي يفسر .

قالت حتشبسوت بابتسامتها الراسخة :

- حلمك هو معجزتي .

ظهر خوفو يليه خفرع ثم منقرع .. سألوا بصوت واحد :

- ماذا سنفعل بضيوف القصر ؟

ثار نقاش طويل حول هذه النقطة . طالب رعمسيس بنسف القصر بمن فيه . طالب امنمحات وأخناتون بالإبقاء عليهم بالقصر حتى الموت . قال اخناتون لحتشبسوت :

- لكن الجماعة التي ستستعدل الأهرامات ليست هي التي قلبتها .

- كلنا نعرف هذا ، لكن غيابهم تسبب في انقلابها ، ولذا فهم المسؤلون الحقيقون ، وما زلت على اصراري بأنهم الصفوة التي ستجد الوسيلة .

في النهاية وافقوا على فكرة امنمحات وأخناتون بعزل ضيوف القصر ، ثم استدعوا حليم ويوسف وسهدوم وأم كلثوم ورجال مجمع الأديان .

التف جمع من الصبية حول المجتمعين أمام التمثال وأخذوا يتفرجون عليهم بدهشة بالغة ، يسخرون منهم ويتبادلون حولهم النكات والقفشات ويرمونهم بالحجارة . نظر اليهم رعمسيس باشفاق شديد وشعر تجاهم بالحسرة والمرارة .

فجأة اختفى الفراعنة ومعهم ضيوفهم . صرخ الصبية من شدة الفزع وسارعوا بالفرار من الميدان . بقى التمثال وحيداً . لم يلحظ أحد من الكبار تساقط دموع غزيرة من عينيه .

- ٥٢ -

دعى فريق الاستعدال المقترح الى حضور الاجتماع الأخير للفراعنة فى عالمهم السفلى . افتتح الحفل بالاستماع الى قصيدة من غناء أم كلثوم . استبد بهم الطرب وهى تشدو بمحبة فائقة :

"وبناة الأهرام فى سالف الدهر .. كفونى الكلام عند التحدى .. أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق ودراته فرائد عقدى" ..

لم يعرف أحد الحاضرين من الأحفاد كيف وصل نبأ الاجتماع الى الجرائد المعاصرة وأجهزة الاعلام حين اندفع المصورون بآلاتهم وكاميراتهم

التلفيزيونية والسينمائية لتسجيل الحدث العظيم ، لكنه كان واضحاً أن الفراعنة قدتوقعوا وصول الجماهير بين لحظة وأخرى .

انتقل الحفل الى العالم الأرضى بجوار الأهرامات . بعد انتهاء أم كلثوم من غنائها وقف أخناتون يقول .. "سيداتى سادتى .. يا أحفادنا الساكين" ..

بدأت جموع غفيرة من المواطنين فى التدفق على مكان الاجتماع اثر انتشار النبأ فى مصر . واصل أخناتون حديثه . "لقد اتخذنا من أجلكم قرارنا النهائى بعد جولتنا الأخيرة فى عالم أحفادنا السفلى المنصرم .. انها فرصة العمر فاهتبلوها بلا تردد .. ادفعوا الصفوة الى الأمام . املؤا قلوبهم بمحبتكم وشدوا أزرهم بعقولكم وسواعدكم حتى تعود الأهرام كما كانت .. رؤوسها شامخة فى السماء وقواعدها راسخة على أعرق أرض عرفها التاريخ " .

أخذت الجموع المتدفقة تهدر بصيحات الحماس والتأييد للصفوة المختارة . ظهر فى السماء طائر غريب الشكل كبير الحجم تبعه طائر آخر من نفس الفصيلة ثم اختفيا . بانت نذر الخطر على وجه يوسف فخر الدين موسى . أراد أن يحذرهم من شىء ما ، لكن نوبة الحماس كانت قد اكتسحت كل شىء فاجتر صمته وابتلع خوفه مما يخبؤه الغيب .

اتجه عليم حتحوت مرتدياً زى الفراعنة ومن خلفه بقية جماعته الى رأس الهرم الأكبر . انحنوا جميعا لقمته المدفونة فى التراب . دفعوها بأيديهم فاهتز الهرم لأول مرة . تعالت صيحات الاعجاب والتكبير الصارخة . وصل الحماس الى الذروة . بدأت الجموع تتدافع تجاه الهرم . تلاحموا مع الفريق فى تناسق هندسى بديع . أصبح الهرم طيعاً بين

أيديهم وباتت المحاولة على وشك النجاح .

كان الفراعنة يرقصون ويبكون فرحاً فالمعجزة وشيكة الوقوع . فوجىء رعمسيس بالشاب الأمريكى يرقب المشهد الأسطورى بدهشة تعبدية أقرب الى الذهول . لم يشعر رعمسيس بالرغبة فى مخاطبته فتركه لحاله وعاش بكيانه لحظة العمر المرتقبة .

- ٥٣ -

انتحت حتشبسوت بنفسها بعيداً عن بقية الفراعنة . جلست فى مكان قصى ترنب حليم محتحوت بحب واعجاب وهو يحقق المعجزة مع شعبه بعد أن طال انتظارها .

***

" أحبك . أحب نسيمك حين تغرب شمسك وحين تشرق . أحب سياطك تروى جسدى . أحب أنغامك . شجيراتك . ورودك . رائحتك . أعشق ليل ضفافك وأتعبد فى أمسيات القمر والأحلام الوردية بين أحضانك . أهيم فى عالمك الأسطورى العبق برائحة السحر ، المفعم بلذة الكشف عن المجهول . . يتضاءل الزمان تحت قدمى أبديتك فأحبك وأحبك

وأحبك ." .

- ٥٤ -

أطلق أبو الهول صرخة صاعقة . رعدت السماء بعنف شديد . ارتجت الأرض وتزلزلت بقوة جبارة . ظهرت فى الأفق طيور جارحة أجسادها فى حجم الانسان . العيون حمراء . المناقير من الحديد الصلب . الأجنحة من شرائط معدنية رمادية اللون . أخذت الطيور تصدر أصواتاً كريهة عالية . راحت الجماهير تجرى فزعة مضطربة . تنفض من حول الأهرامات بأقصى ما تستطيع من سرعة . يصطدمون ببعضهم البعض وهم يهربون الطيور تحوم فوق رؤوسهم وقد ازداد ارتفاع أصواتها الكريهة المنذرة بالسوء . اختفى الجميع . لم يبق بالساحة غير أخناتون وحليم متحوت الذى قال بحسرة :

- يا فرحة ما تمت ..

اختفى أخناتون وظهرت حتشبسوت . نظرت الى حليم حتحوت نظرة هائمة بأطياف الحفيد الأول وأرملة قتيل اليمن والحفيد الثانى ومطيعة ، وفانوس افندى الغلبان والعامل عدو المرأة ، والكاتب الشاب شهيد حرب أكتوبر . اتسعت حدقتا عينيها فى وجه حليم فقال يوسف عن النفاق وتآل سهدوم عن العقل والقلب ، وعج قصر الضيافة بالنزلاء المعزولين ، تبكى الطفل الجميل حسرة على ولادته بمصر الحديثة ، وأخذ العمال الحرفيون يدخنون الحشيش ويضحكون ، حين وقف شاب مثقف يتفرج بحيا ، شديد على "فاترينة " للأحذية التى توطأ بها الأرض .. أما الأهرامات فما زال عاليها واطيها .

تحسست حتشبسوت بطنها برفق وقالت لحليم انها حامل . قال حليم وقد استبدت به الحيرة وروعة غموض الموقف :

- لقد انفض من حولنا الجمع فلم يبق الا أنا وأنت .

لم تسمع حرفاً مما قاله المفكر الكبير .. رددت قولها بلهجة عابد متصوف :

- انى حامل .

بعينين زائغتين بين الجماهير الهاربة وحتشبسوت الحالمة قال حليم والحزن آخذ به : .

- لكنك ستعودين الى العالم السفلى .

قالت باطمئنان شديد :

- لقد اتفق الفراعنة مع الحفيد الثالث على استبقائى بمصر حتى أضع وليدى .

***

صدر للمؤلف

١- جلامبو	رواية	١٩٧٦	الإسكندرية
٢- بوابة مورو	رواية	١٩٧٧	الإسكندرية
٣- عمالقة أكتوبر	رواية	١٩٧٩	هيئة الكتاب - القاهرة
٤- آلهة من طين	رواية	١٩٨٥	هيئة الكتاب - القاهرة
آلهة من طين	طبعة ثانية	١٩٨٦	دار الجليل - دمشق
٥- عاليها أسفلها	رواية	١٩٨٥	وزارة الثقافة دمشق
٦- قبلة الملكة	مجموعة قصصية	١٩٨٧	اتحاد الكتاب العرب. دمشق
٧- الشرخ	رواية	١٩٨٨	دار طلاس . دمشق
٨- الأزمنة	رواية	١٩٩٢	روايات الهلال . القاهرة
٩- الموظفون	مجموعة قصصية	١٩٩٢	اتحاد الكتاب العرب . دمشق
١٠- الفلوس	رواية	١٩٩٣	دار ومطابع المستقبل

تحت الإصدار

١- حالة مستعصية	رواية طويلة
٢- كف مريم	رواية طويلة
٣- هوى الخمسين	مجموعة قصصية

تطلب مؤلفات الأستاذ سعيد سالم

من دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية

رقم الايداع
٩٢ /١٠١٥٥
الترقيم الدولى ISBN
977 - 5365 - O4 - x

